الرايات السود

عبد الله عزام من الجهاد
إلى الاغتيال الأخيرة
ميراث الشيخ الراحل



عبدالله كمال

ـ الرايات السوداء ـ

عبد ا   عزام من الجهاد إلى الاغتيال *

عبد ا   كمال

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

الرايات السوداء ـ عبد ا عزام من الجهاد إلى الاغتيال (١) * مائة عالم وافقوا على فتوى «الجهاد أهم فروض الأعيان».. فبدأ عبد ا عزام تهجير العرب الأفغان

عبد ا كمال

* لماذا يصر العرب الأفغان على تجاهل سيرة عزام.. وهل يعود السبب إلى أسامة بن لادن؟

* قال: بعض المجاهدين العرب في أفغانستان لم يحتمل الشدائد.. وصار يناقش فى حكم الجهاد أصلا لا بد أن يتوقف أي باحث موفق في مسيرة «الحركة الأصولية الإسلامية الأممية» أمام مجموعة من الأسماء المؤثرة في تلك المسيرة، لأنها كانت، ولم تزل بمثابة العناصر الملهمة لتلك الحركة، بغض النظر عن الموقف الفكري للباحث من أصحاب تلك الأسماء ورؤاها. ومنذ تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨ وحتى نشوء تنظيم «القاعدة» فى السنوات الأخيرة، فإن «الأصولية الإسلامية الأممية» كانت دوما تنال في كل مرحلة من تاريخها دفعة إلهامية أو فكرية أو تنظيمية من قائمة تلك العناصر المؤثرة.

يتصدر القائمة بالطبع حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين الملقب داخل الجماعة بصفة «الإمام الشهيد»، ومن بعده أبو الأعلى المودودي مؤسس جماعة «إي إسلامي» في شبه القارة الهندية، وسيد قطب المفكر الإخواني المصري الراحل صاحب الكتاب الشهير «في

ظلال القرآن»، وعبد ا عزام العربي الأفغاني الأول، الذي كان له الدور الأكبر والأهم في نشـوء ظـاهرة «العـرب الأفغان»، والتي بدورها أنتجت في ما بعد تنظيم «القاعـدة» الذي تخوض الولايات المتحدة الحرب ضده الآن، منذ وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر (ايلول)، والـدكتور حسـن الترابي مؤسس الجبهة القومية الإسلامية الشعبية، ثم أخيـرا أسامة بن لادن زعيم تنظيم «القاعدة».

لا شك أن هناك قائمة أطول من الأسماء لعبت دورا ما، كان لها تأثيرها هنا أو هناك، لكن الأسـماء المـذكورة وحدها كان لها الدور الأهم في تحول «الأصولية الإسلامية» إلى «أمميـة دوليـة»، يحـدوها أمـل تأسـيس «الخلافـة الإسلامية».. وهو أمل اختلفت وسائل كل جماعة أو تنظـيم في السعي إليه.. وتراوحت ما بين «الرومانسية السـاذجة» و«البراجماتية العميقة».. وصولا إلى مرحلـة «الإرهـاب» والعنف واعتماده وسيلة أساسية من أجل تحقيق هذا الأمـل الخاص بتلك الجماعات.

الأمر اللافت للنظر في سيرة كـل تلـك الأسـماء «المؤثرة» أن حياة كل منهم مضـت فـي اتجـاه تطـور

دراماتيكي مثير للانتباه، بل إن كل منهم عاش معتركات متنوعة ما بين السجن والمطاردات، وحتى الاغتيال.. لا يتسع لها المقام هنا.. والأكثر لفتا للأنظار أنه رغم تعرض عشرات من الباحثين لكل تفاصيل حياة ورؤى وأفكار هذه الأسماء المؤثرة إلا أن هناك حالة استثنائية مهمة لم يقترب منها كثيرون كما فعلوا مع غيره وأعني به عبد ا عزام.

واقعيا لا يوجد مبرر واضح لهذا «التجاهل الاستثنائي»، بل إن هذا يكشف عن تناقض رهيب. فعبد ا عزام قام بمهمة لم يزل يكتنف تفاصيلها وكثير من مبرراتها غموض طاغ. فقد حقق أكبر تسويق إعلامي ديني للقضية الأفغانية في الدول العربية وبين المهاجرين المسلمين في أوروبا والولايات المتحدة، وجمع أكبر قدر من أموال التبرعات لصالح المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفياتي، واجتذب المئات الأوائل من «العرب الأفغان» الذين أقنعهم بأولوية «الجهاد» في أفغانستان، وقد كان بمثابة «الأب الروحي» لأسامة بن لادن حتى أن كلاهما وصف الآخر بأنه «أمة في رجل».

وحين بدأت في إعداد كتابي «الرايات السوداء ـ القصة الموثقة لدولة أسامة بن لادن والعرب الأفغان»، والذي أسعى فيه لتأصيل مسيرة الدولة العالمية التي حاول بن لادن أن يعلنها إنطلاقا من أفغانستان، واجهت مصاعب كبيرة في العثور على مصادر موثقة تكشف خبايا هذا الرجل الملقب بين العرب الأفغان بـ«الشيخ الشهيد».. بل إن كثيرين من منظري ومؤلفي أدبيات تنظيم «القاعدة» اكتفوا بذكر عبارات التقدير والعرفان التي تصل أحيانا إلى ما يقرب من «التقديس» للشيخ الراحل، دون أن يتجاوزوا ذلك.. إلى درجة دفعتني للشك والاسترابة في أن هناك تجاهلا متعمدا بينهم له. ومن المؤكد أن أي مراقب متيقظ لا بد أن يرصد ذلك التناقض بين الاهتمام بتأريخ «العرب الأفغان» لكل صغيرة وكبيرة وشاردة وواردة عن أسامة بن لادن.. بينما لا يحظى الرجل الذي كان مرشدا روحيا له بنفس الدرجة من الاهتمام. فهل يعود ذلك إلى خلاف كان قد وقع بين بن لادن وعبد ا عزام في غضون عام ١٩٨٦ بعد أن بدأ بن لادن الاستقلال بنفسه وبتنظيمه عن عبد ا عزام؟.. ربما.

أوصاف أسطورية تاريخيا، لم أعثر على مصادر محايدة حول الرجل وفكره، وكل المتوافر عنه هو مجموعة من الكتيبات والمحاضرات المطبوعة والمقالات المنشورة في مجلة كان يصدرها في بيشاور، تطوع بنشرها في ما بعد مركز يحمل اسم عبد ا عزام في بيشاور أيضا.. وقد اضطرتني حالة التعتيم شبه المتعمدة إلى نسج القصة الكاملة لعبد ا عزام بأسلوب «الموزاييك» الذي يقتفي أثر المعلومات القليلة حوله في كتاب هنا، أو حوار ومقال هناك.

يصف «بو جمعة»، وهو إمام سابق لمسجد في مدينة «بلعباس» الجزائرية، لقاءه الأول مع الشيخ الراحل عبد ا عزام عند بئر زمزم في مكة المكرمة، قائلا: «كان يتضلع من ماء زمزم، كنت قد رأيت صورة له من قبل، فقلت له: هل أنت الشيخ عبد ا عزام.. فرد: نعم».

إن «بو جمعة»، الذي أصبح اسمه في ما بعد عبد ا أنس وتزوج من ابنة عزام التي تصغره بـ ١٩ عاما، ليس الوحيد الذي يحرص على أن يؤكد على أن لقاءه الأول مع الشيخ عزام كان قد تم في تلك البقاع المقدسة، فهذه قصة تتكرر كثيرا على ألسنة عشرات من العرب الأفغان، مثل أبو

حمزة المصري، وهو مهندس سكندري قابل عزام بعد عبد ا أنس بثلاث سنوات، أي في عام ١٩٨٧. إذ يقول: «قابلت الشيخ عزام في موسم الحج، وطلب مني الذهاب إلى أفغانستان لمساعدة الأفغان من الناحية الهندسية ومن الناحية العسكرية إن استطعت».

وفي ما يبدو فإن هناك رغبة لدى هؤلاء في أن يضفوا هالة من القداسة على بدايات رحلتهم إلى أفغانستان، إلا أنه من الناحية الواقعية كان ذلك طبيعيا باعتبار أن تلك الأماكن هي بالفعل التي اعتاد عزام أن يسافر إليها أوقاتا كثيرة.. دعاية للجهاد الأفغاني، وجمعا لأموال التبرعات، واستقطابا للشباب لكي يسافروا إلى أفغانستان، وحرصا على المساندة الدينية له بالفتاوى.

ولد عبد ا عزام في قرية تابعة لبلدة جنين في فلسطين عام ١٩٤١. وهنا تنشأ المفارقة التي طاردته طوال السنوات التسع التي خاض فيها المعركة الأفغانية حتى عام ١٩٨٩ إذ كيف يكون فلسطينيا ويقوم بكل هذا الجهد من أجل أفغانستان، بينما بلده محتل ويخوض معركة قاسية من أجل التحرير.. ويعيش أحلك سنوات الانتفاضة الأولى تحت نير

الاحتلال الإسرائيلي قبل انعقاد مؤتمر مدريد للسلام، بينما هو مشغول تماما بجمع شتات الفرقاء الأفغان؟ لقد كان هذا لغزا كبيرا. لكنه لم يكن اللغز الوحيد.

الشيخ عزام لم تكن لديه ميول دراسية دينية واضحة منذ البداية، فبعد أن تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في مدارس طولكرم حصل على دبلوم زراعي، قبل أن يعمل مدرسا في مدرسة زراعية قروية بالأردن، لكنه بعد ذلك سافر إلى دمشق وحصل على الليسانس من كلية الشريعة في عام ١٩٦٦ ثم هاجر إلى الأردن بعد هزيمة ١٩٦٧. حيث بدأ أولى عمليات الاشتراك في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لفترة وجيزة.

في غضون ذلك أصبح عبد ا عزام مدرسا في جامعة الأردن، ثم سافر إلى مصر، حيث نال الماجستير في «الشريعة» من جامعة الأزهر، ثم عاد إلى الأردن، وما لبث أن كوفئ بمنحة دراسية أخرى إلى الأزهر، حيث نال درجة الدكتوراه في «أصول الفقه». وحين رجع إلى الأردن لم يقض وقتا طويلا وسرعان ما انتقل إلى السعودية، حيث أصبح أستاذا في جامعة الملك عبد العزيز في جدة.

تقول مجلة «نضال الإسلام»: في عدد تموز ـ ايلول (يوليو ـ سبتمبر) ١٩٩٦: «لقد آمن الشيخ عبد ا عزام بأن الذين يناضلون من أجل تحرير فلسطين قد ابتعدوا تماما عن الإسلام الحقيقي، وأن الطريق العسكري هو الوحيد المتاح لكي تحقق الأمة الإسلامية النصر بالجهاد والبندقية وحدهما، لا مفاوضات، لا مؤتمرات، لا حوارات». هكذا اجتذب الوضع الأفغاني الساخن في أعقاب الغزو السوفياتي عبد ا عزام دون مبرر واضح ومقنع فسافر إلى باكستان، حيث أصبح أستاذا في جامعة إسلام آباد لكنه سرعان ما ترك وظيفته وقرر أن يبدأ الجهاد من أجل نصرة الأفغان، وسافر إلى بيشاور حيث وجد في الجهاد «أرضا لشوقه وحبه الجارف للحرب على طريق ا ».

بهذا كان عبد ا عزام هو «العربي الأفغاني الأول»، الذي ذهب مبكرا جدا إلى هناك، لكنه لم يكن مجرد متطوع رومانسي حالم، أو مؤرخ دارس، وإنما صار همزة الوصل الأولى والأهم بين القضية الأفغانية والعالم العربي.. سواء كان العرب في بلادهم أو في بلاد المهجر في أوروبا والولايات المتحدة، وبدا وكأنه ينفذ مهمة محددة.

الأسباب الستة عشر من المؤكد أن الشيخ الـدكتور عبد ا   عزام كان يملك مقومات خاصة تؤهله لهذه المهمـة، فكل الذين التقوه كانوا يعبرون عن إعجابهم بـه ـ وعلـى الأقل أغلبهم ـ ويقول عبد ا أنس: «كانت له ـ رحمه ا ـ طلعة يوسفية، وعزم عمري، وحسام خالدي، كما قال عنه أحد الشعراء في الخليج، فقد كان له بالفعل جمال وجه رزقه ا   إياه وعزيمة لا تلين، كما أنه كان حاسما بتبنيـه الجهـاد وتحريكه الأمة في سبيل ذلك». وبغض النظـر عـن هـذا الوصف الأسطوري الذي جاء على لسـان صـهره، وهـو وصف مجامل جعل له مواصفات نادرة لم تجتمع في كل من نبي ا   يوسف عليه السلام، وخليفة المـؤمنين عمـر بـن الخطاب رضي ا   عنه وفارس المسلمين خالد بن الوليد، فإن هذا بشكل أو آخر يعطينا فكرة عن صفات «الكاريزما» التي تمتع بها عبد ا   عزام كما بدا لأتباعه ومعجبيه.

على أن عزام كان كذلك خطيبا مفوها، مـن النـوع الجذاب الآسر لسامعيه، يمزج كلماته بآيات القرآن وأحاديث الرسول، ولا يتخلى دائما عن الشعر الحماسي ويرصع خطبه بالقصص التاريخية، ويتعمد تكرار الحديث عـن كرامـات

أسطورية، ويبسط المفاهيم، ويتطوع بالشرح الجغرافي والتاريخي لواقع الجهاد في أفغانستان، بأسلوب قصصي وخطابي لم يتكرر لدى كثيرين غيره، وقد استغل كل هذا في عملية اجتذاب واسعة ومنظمة للمال والرجال من أجل تشجيع المسلمين على الجهاد في أفغانستان وكأنها قضية الإسلام الوحيدة إن لم تكن الأخيرة.

وقبل أن نغوص في تفاصيل هذه «الحملة العزامية» فإننا نتوقف أمام مذكرة مهمة كتبها الشيخ عزام تلخص إجمالا المعاني التي كان يرددها في سبيل إقناع من يتوجه إليهم للتبرع أو للجهاد في أفغانستان، ونعني بذلك مذكرة «الحق بالقافلة»، ويقول في مقدمتها تعريفا بها: «هذه رسالة صغيرة كتبتها للذين يتحرقون للجهاد ويطمعون في الشهادة في سبيله».

إن الشيخ الراحل كان يرى أن «مصيبة المسلمين الكبرى هي ترك الجهاد، وحب الدنيا وكراهية الموت»، ومن هنا فهو يرى أن ذلك أدى إلى «تسلط الطغاة على رقاب المسلمين في كل ناحية وفوق كل أرض، لأن الكفار لا

يهابون إلا القتال»، وفي هذا الإطار يذكر عبد ا عزام ١٦ سببا لحث خطى المسلمين نحو القتال:

١ ـ حتى لا يسود الكفر، «فإذا توقف القتـال سـاد الكفر وانتشرت الفتنة وهي الشرك». ويؤكد على هذا بالآيـة رقم ٣٩ من سورة الأنفال: «وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنـة ويكون الدين كله فإن انتهوا فإن ا بما يعملون بصير».

٢ ـ لقلة الرجال. «إن أزمة العالم الإسـلامي هـي أزمة رجال يضطلعون بحمل المسـؤولية والقيـام بأعبـاء الأمانة».

٣ ـ الخوف من النار. «إلا تنفروا يعـذبكم عـذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا وا على كـل شيء قدير» (التوبة: ٣٩).

٤ ـ الاستجابة للنداء الرباني. قال تعالى: «انفـروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سـبيل ا ذلكـم خير لكم إن كنتم تعلمون» (التوبة: ٤١).

٥ ـ اتباع السلف الصالح. «فقد كان الجهـاد دينـا للسلف الصالح، وكان صلى ا عليه وسلم سيدا للمجاهـدين وقائدا للغر الميامين».

٦ ـ إقامة القاعدة الصلبة لدار الإسلام. «إن إقامة المجتمع المسلم فوق بقعة أرض ضرورية للمسلمين، ضرورة الماء والهواء، وهذه الدار لن تكون إلا بحركة إسلامية منظمة، تلتزم الجهاد واقعا وشعارا وتتخذ القتال لحمة ودثارا».

٧ ـ حماية المستضعفين في الأرض.

٨ ـ طمعا بالشهادة والمنازل العلى في الجنة.

٩ ـ حفظا لعزة الأمة ورفع الذل عنها.

١٠ ـ حفظا لهيبة الأمة ورد كيد أعدائها.

١١ ـ صلاحا للأرض وحماية لها من الفساد.

١٢ ـ حماية للشعائر الإسلامية.

١٣ ـ في الجهاد حماية الأمة من العذاب ومن المسخ والاستبدال.

١٤ ـ في الجهاد غنى الأمة وزيادة ثرواتها: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي» (حديث نبوي).

١٥ ـ الجهاد ذروة سنام الإسلام.

١٦ ـ الجهاد من أفضل العبادات وبه ينال المسلم أرفع الدرجات.

فرض عين إن مثل هذه المعاني هي نفسـها التـي وردت في كتاب محمد عبد السلام فرج «الفريضة الغائبـة» والذي ألفه تأصيلا لمعنى الجهاد في عقيدة تنظـيم الجهـاد المصري الذي اغتال في عام ١٩٨١ الرئيس السادات. لكـن الشيخ عبد ا عزام صاغ رؤيته بأسلوبه الخاص في سـبيل تحقيق هدفه وهو أن «يلحق من يقرأه ويسمعه بالقافلة». ففي الجزء الثاني من رسالته تلك يوجه عبد ا عزام المسـلمين إلى المكان الذي يرى أنه الأوجب بأداء فريضة الجهاد.

قال عزام تحت عنوان «وا إسـلاماه»: «لا تخفـى عليكم التضحيات الباهظة التي فرضت على الشعب الأفغاني المسلم، فهم يتحملون أقصى ما يمكن أن يتحمله بشر لحماية دينهم وأعراضهم وأطفالهم ولم يبق بيت فـي أفغانسـتان إلا وتحول إلى مأتم ويتم من فيه». «ولم يبق في القوس منزع، وكادت سهام الكنانة تنفد، والأفغان يـأملون مـن إخـوانهم المسلمين أن تفد جموعهم وأن تتحرك اخـوة الإسـلام فـي أعماقهم، ولكن لم يلب المسلمون نداءهم حتى الآن، وكأن في آذانهم صمتا دون أنات الثكالي، وصيحات العذارى وآهـات الأيتام وزفرات الشيوخ».

ويضيف مؤكدا على وجوبية الجهاد في أفغانستان: «على قدر اطلاعنا القليل وعلمنا اليسير نعتقد أن الجهاد وفي مثل هذه الحالة الراهنة في أفغانستان فرض عين بالنفس والمال، كما قرره فقهاء المذاهب الأربعة بلا استثناء ومعهم جمهرة المفسرين والمحدثين الأصوليين».

وعلى قدر تلخيص هذه «المذكرة ـ الرسالة للأفكار التي روجها الدكتور عبد ا عزام في السنوات التي قام فيها بالدعاية للجهاد في أفغانستان، فإنها لا تنسينا هنا الإشارة إلى أنه بدأ حملته تلك باستصدار فتوى تؤكد أن الجهاد في أفغانستان فرض عين على كل المسلمين.. وقد استطاع أن يحصل على توقيع عدد كبير من الشيوخ المسلمين العرب على هذه الفتوى تأكيدا لما جاء بها، ومنهم الشيخ بن باز والشيخ بن عثيمين والشيخ يوسف القرضاوي والشيخ عبد ا ناصح علوان، والشيخ حسن أيوب، الشيخ حسن حوى، والشيخ محمد نجيب المطيعي، وبهذه التوقيعات متنوعة المذاهب والجنسيات صارت فتوى عزام هذه فتوى أممية معتمدة من علماء من مختلف المشارب والاتجاهات.

يقول عبد ا   عزام في فتواه هـذه تحـت عنـوان «الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان» راويـا قصة تلك الفتوى: «كتبت هذه الفتوى، وكانت أكبر من هـذا الحجم، ثم عرضتها على فضيلة شيخنا الكبير سماحة الشـيخ عبد العزيز بن باز وقُرئت عليه واستحسنها، وقال إنها طيبة ووافق عليها، إلا أنه اقترح علي أن أختصرها حتى يكتب لها مقدمة ننشرها بها، ثم اختصرتها، ولكن وقت الشـيخ كـان مزدحما وقت الحج ولم يتسع المجال لعرضها عليـه مـرة أخرى».

وفي موسم الحج عام ١٩٨٣ وقف عبد ا   عزام في «مركز التوعية العامة» بمنى، حيث اجتمع أكثر مـن مائـة عالم من دول إسلامية مختلفة، وقرأ فحـوى الفتـوى فـي حضور عبد رب الرسول سياف أحد أكبر قيـادات الجهـاد الأفغاني، وقال عزام: «لقد عايشت الجهاد الأفغـاني ثـلاث سنوات، وأقرر أمام سياف أن الجهاد في أفغانستان يحتـاج إلى رجال، فمن كان منكم أيهـا العلمـاء عنـده اعتـراض فليعترض.. ولم يعترض أحد».

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان الجهاد فعلا في أفغانستان في حاجة إلى رجال؟ وهو ما يجرنا إلى سؤال آخر هو: هل العرب هم الذين حققوا النصر على السوفيات في أفغانستان؟ إن الإجابة هي النفي بالتأكيد، وكما تبين من قبل فإن الشعب الأفغاني كان قد توزع بالفعل على عدد كبير من الفرق والفصائل التي بادرت بالفعل للدفاع عن أرضها.. وكما سوف يتبين من بعد فإن حجم العرب مهما بلغ في أشد التقديرات مبالغة لم يكن يقارن على الإطلاق بحجم أصحاب الأرض الأصليين الذين قاموا بالدور الأكبر.

إذن لماذا كان الشيخ الفلسطيني يحرص على دفع الرجال العرب دفعا إلى هناك؟

في تصوري ان هناك واحدا من ثلاثة أسباب أو كلها معا: فإما أن هذا هو العبء الذي أنيط به قبل أي شيء آخر، إيحاء بدولية القضية الأفغانية وزيادة في اهتمام الرأي العام الإسلامي بها ضد الشيوعية السوفياتية.. وإما أنه كان صاحب عقلية تفاوضية ووضع هذا الطموح - جمع أكبر عدد ممكن من الرجال - حتى يحصل على ما يرغب فيه وهو جمع أكبر قدر ممكن من المال ما دام الرجال لن

يسافروا. وإما أنه كان صاحب رؤية مستقبلية ورأي بالفعـل في أفغانستان، المكان الصالح لإقامة الحلـم القـديم، وهـو تحريـر أرض لكـي تصـبح ـ حسـبما يـؤمن ـ «دارا للإسلام»، ومنها يتم الانطلاق لتأسيس الخلافة الإسلامية.

عموما راح عبد ا عزام يكثـف تأكيـده علـى أن «الجهاد فرض عين على كل المسلمين» ويركز فـي فتـواه على النقاط التالية:

ـ بلاد المسلمين كالبلد الواحد، وأي بقعة من بقـاع المسلمين تعرضت لخطر وجب أن يتـداعى جسـد الأمـة الإسلامية كلها لحمايته.

ـ إذا دخل العدو أرض المسلمين يصـبح الجهـاد فرض عين.

ـ إذا أصبح الجهاد فرض عين فلا فرق بينه وبـين الصلاة والصوم.

ـ إذا أصبح الجهاد فرض عين فلا إذن للوالـدين.. كما لا يستأذن الوالدان في فريضة الحج وصيام رمضان.

ـ لا فرق بين تارك الجهاد بـدون عـذر ومفطـر رمضان بدون عذر.

ـ لا يغني دفع المال عن الجهاد بالنفس مهما كان المبلغ الذي دفع.

ـ الجهاد فريضة العمر كالصلاة والصوم.

ـ الجهاد فرض عين في كل مكان استولى عليه الكفار، ويبقى فرض عين حتى تتحرر كل بقعة في الأرض كانت إسلامية.

ـ كلمة الجهاد تعني القتال بالسلاح.

ـ «الجهاد الأكبر» الذي يقصد به «جهاد النفس».. ليس صحيحا وهو من حديث باطل.

ـ لم يعذر ا عن الجهاد سوى المريض والأعرج والأعمى والطفل الذي لم يبلغ والمرأة التي لا تعرف طريق الجهاد والهجرة.

ـ الجهاد عبادة جماعية، وكل جماعة لا بد لها من أمير، وطاعة الأمير في الجهاد من الضرورات.

دليل الإرشادات وفق هذا المنهج كان عبد ا عزام يسعى ـ إذا آمن كل الناس بما يقول ـ إلى أن تتحول الأمة الإسلامية كلها إلى الجهاد ضد الشيوعية في أفغانستان، وكان معنى ما يقول هو أن الإسلام سوف ينهار تماما إذا ما

تراخى أي فرد عن أن يسافر إلى أفغانستان، أو على الأقـل يقدم تبرعا له. وفي هذا السياق نشير إلى أنه كان فـي كـل محاضرة أو خطبة أو في نهاية كل كتيب له يوزع عنـوان وتليفون «مكتب خدمات المجاهدين» الذي أنشأه في بيشـاور كقبلة للمجاهدين القادمين.

ومن الواضح بالطبع أن عبد ا عزام كان يعرف ما يفعل بدقة، وهو لم يكن يتجاهل في مهمته الاحترافية تلك أي ثغرة يمكن أن تؤثر على إعداد المسافرين إلـى أفغانسـتان، ومن هنا كان طبيعيا أن نراه يتحدث عـن مجموعـة مـن الإرشادات الواجب اتباعها لكل ساع إلى الجهاد هناك، بعـد أن يقتنع بما يقول، وبالتـالي فإنـه كتـب تحـت عنـوان «ملاحظات للقادمين للجهاد»:

«إن الشعب الأفغاني فيـه كبقيـة الشـعوب جهـل وعيوب، فلا يظنن أحد أنه سوف يجد شعبا كاملا ليس فيـه نقائص، ولكن الفرق بينه وبين بقية الشـعوب أنـه اشـترى عزته ببحر من الدماء وجبال من الجماجم والأشلاء أما بقية الشعوب فقد خضعت من اليوم الأول للاستعمار والكفر».

وهو كذلك «شعب تربى على المذهب الحنفي، ويرى أن كل من على غير ذلك ليس من الإسلام، وعلى كل مـن أراد أن يجاهد مع الشـعب الأفغـاني أن يحتـرم المـذهب الحنفي».

بل إن عبد ا عـزام لـم يمـانع فـي أن يتـرك «المجاهدين العرب القادمين»: «بعض هيئات الصـلاة فـي بداية الاختلاط بهم ـ أي الأفغان ـ لأن ذلك يعطيك فرصة غالية حتى تصل إلى قلوبهم وتوجههم وتربيهم وتصلح أمـر دينهم ودنياهم».

وعلى الرغم من كل هذا، وكل تلك الاحتياطات التي حاول عبد ا عزام اتخاذها إلا أنه وبمضي الوقت بدأ يواجه انتقادات متنوعة، لاسيما مع احتدام المعارك وكما يقول هـو «فإن بعضهم ـ أي المجاهدين العرب ـ لم يحتمل الشـدائد وصار يناقش في حكم الجهاد أصلا».

* في الحلقة الثانية: الشيخ الفلسطيني يؤجل قضـية فلسطين

الرايات السود ـ عبد ا   عزام من الجهاد إلى الاغتيال (٢)

* الشيخ الفلسطيني يؤجل قضية فلسطين

عبد ا   كمال

* عبد ا   عزام رأى أن تحرير القدس يجب أن يتم عن طريق كابل.. «لأن العرب قد يقتلوننا قبل قتل اليهود»
* مبرراته لتأجيل قضية فلسطين: آيديولوجية المناضلين والحدود المفتوحة وصلابة الشعب الأفغاني.
* الشيخ الراحل يتحدث عن عهد مع المجاهدين الأفغان بأن يساعدوه في قضية القدس كما ساعدهم في بلادهم سأل أبو حمزة المصري الشيخ عبد ا   عزام حين دعاه الأخير الى السفر لأفغانستان دعما للجهاد: «كيف أذهب الى أفغانستان يا شيخ عبد ا ، انك تطلب مني أن أذهب الى هناك وهي بعيدة ألفي ميل عن بريطانيا ـ حيث كان يعيش أبو حمزة ـ في حين أن بيننا وبين القدس حائطا من الأسلاك، فكيف لا تأمرنا أن نتخطاه وتطلب منا الذهاب كل هذه المسافة الى

أفغانستان؟».

وقال أبو حمزة: «كنت أرى في ذلك الوقت أن بعض المشايخ لا يرون الوضع جيدا». فقال له عبد ا عزام: الأمة في سبات، وأفغانستان هي الطريق وان اختلاف الاتجاه، انها الطريق الى التدريب ولانشاء كوادر تقاتل من هذه الأمة.

ويعقب أبو حمزة: «ما قاله الشيخ عبد ا فيه جانب كبير من الصحة، الأمة كانت في سبات، والحرب مع اسرائيل هي حرب مع أميركا، ومع كثير من الأنظمة التي نحسبها اسلامية. هو كان مستوعبا لهذا الجزء القتالي. وكنت أنا مستوعباً لجزء عقائدي فقط».

لم يكن ما قاله عبد ا عزام مقنعاً، لكن أبو حمزة اقتنع. وقد اقتنع مئات ان لم يكن آلاف غيره من الأفغان العرب بحتمية تأجيل قضية القدس حتى يتم تحرير كابل. لكن المثير في الأمر أنه حين تم تحرير كابل كان أن تشرذم غالبية هؤلاء الى عشرات الاتجاهات الأخرى في البوسنة والشيشان وكشمير والفلبين وايغورستان (الصين) وكوسوفو. ولم يذهب أي منهم الى فلسطين. ان تلك نقطة مثيرة تماما للجدل ومعبأة بالألغاز لعدة أسباب:

* جنسية الداعية الأول للجهاد الأفغاني وانتماؤه، عبد ا عزام الفلسطيني الذي اشترك لبعض الوقت في المقاومة الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧. ثم نذر الجزء الأخير من حياته بالكامل لقضية الأفغان ليس هو فقط، بل ومن معه.

* جنسية وانتماء «العرب» الذين تمت دعوتهم للجهاد في أفغانستان نفسا ومالا، والذين اختاروا طواعية السفر الى وسط آسيا بدلا من أن يفعلوا شيئا من أجل القضية المصيرية العربية الأولى التي رضعوا آلامها وتعبوا من معاناتها.

* ان القضية الأقدم والأعرق والأهم قوميا هي قضية فلسطين، وما تبعها في ذلك التوقيت من أحداث مهمة توجت بالانتفاضة الأولى في عام ١٩٨٨. وما سبق ذلك من عمليات غزو اسرائيلية لجنوب لبنان.

* ان قضية فلسطين ذات أبعاد دينية مهمة جدا، لا تقتصر فقط على أنها صراع مع اليهود بكل ما لهذا الصراع من امتداد وخلفية عقيدية في الفقه والعقيدة الاسلامية، وانما تمتد كذلك الى أهمية القدس والمسجد الأقصى الدينية، أولى القبلتين وثالث الحرمين. لقد دعم هذا التناقض الرهيب والثغرة الهائلة في المنهج، الظنون التي ترى أن الشيخ عبد

ا عزام، كان يقصد ذلك بالفعل في ضوء دعم الولايات المتحدة الكامل للجهاد الأفغاني واختراقها لصفوف وعقول من يدير هذا الجهاد. وشكك بالتالي في نقاء الأهداف المعلنة، والتي رفعت أقدس الشعارات الدينية بشرط أن يتم تطبيقها بعيدا هناك في أفغانستان. أفغانستان أولا لو أن الشيخ عبد ا عزام لم يكن فلسطينيا، ولو أنه لم يكن قد هب فجأة الى مهمة «الجهاد الأفغاني» بعد نحو ١٢ عاما من التوقف عن أي عمل حركي معلن، لكانت الشكوك قد خفت ولكانت الريبة قد زالت. صحيح أن له خلفية اخوانية، الا أنها اجمالا غير مؤثرة أو ملموسة، فضلا عن أنه لم يكن ضمن قيادة منظمة معروفة في أي تنظيم ديني طوال تلك السنوات التي سبقت هذا الحماس الرهيب منه لقضية أفغانستان. فهو كان مجرد أستاذ جامعي متخصص في الفقه بدون تاريخ بارز في الساحة التي تصدى لتصدرها. ولا يتنافى مع تلك القرينة كونه كان عضوا في جماعة الاخوان المسلمين الفلسطينية، ولا تثبت الوقائع التاريخية أنه من الذين كان لهم دور أساسي في هذه الجماعة. وقد كانت هذه النقيصة تطارد الشيخ عزام في كل مكان، وكان هو يلمس التناقض الذي عاب خطابه

ومنهجه لا سيما أنه الرجل الذي اتبع فتوى حتمية الجهاد في أفغانستان باعتباره ـ كما رأى ـ واجبا على كل مسلم بفتوى أخرى عنوانها «الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان». في هذه الفتوى طرح عبد ا عزام على نفسه السؤال: «هل نبدأ بأفغانستان أم نبدأ بفلسطين؟». وبداية قال: «اذا اعتدي على شبر من أراضي المسلمين فان الجهاد يتعين على أهل تلك البقعة وعلى من قرب منهم. فان لم يكفوا أو قصروا أو تكاسلوا يتوسع فرض العين على من يليهم، ثم يتدرج فرض العين بالتوسع حتى يعم الأرض كلها شرقا وغربا» وبالتالي حسبما يرى: «ان اثم تقاعس جيلنا عن النفير في القضايا المعاصرة ـ كأفغانستان وفلسطين والفلبين وكشمير ولبنان وتشاد واريتريا ـ أشد من اثم سقوط الأراضي الاسلامية السابقة التي عاصرتها أجيال مضت، وكنا نقول يجب أن نركز جهودنا على أفغانستان وفلسطين الآن، لأنهما قضيتان مركزيتان، والعدو المحتل ماكر يحمل برنامجا توسعيا في المنطقة كلها، ولأن في حلهما حلا لكثير من القضايا في المنطقة الاسلامية كلها، وحمايتهما حماية للمنطقة كلها». (نقلا عن كتاب «الدفاع عن أراضي

المسلمين أهم فروض الاعيان»). وبغض النظر عن أن عبد ا عزام كان يركز جهوده على أفغانستان وليس على فلسطين كما قال، وبغض النظر عن أنه ساوى في الأهمية بين القضيتين فضلا عن مساواته لهما بقضايا أخرى في الفلبين وكشمير، فان عبد ا عزام كان يرى دوما أن البداية الواجبة هي أفغانستان: «من استطاع من العرب أن يجاهد في فلسطين فعليه أن يبدأ بها، ومن لم يستطع فعليه أن يذهب الى أفغانستان. وأما بقية المسلمين فانني أرى أن يبدأوا جهادهم في أفغانستان. اننا نرى البدء بأفغانستان، لا لأنها أهم من فلسطين، بل فلسطين هي قضية الاسلام الأولى، وقلب العالم الاسلامي وهي الأرض المباركة». ولكن هناك أسبابا تجعل البدء بأفغانستان قبل فلسطين أولى منها، حسبما قال، وهي في رأيه:

* ان الراية في أفغانستان اسلامية واضحة، والغاية واضحة «لتكون كلمة ا هي العليا»، ولقد نص دستور اتحاد مجاهدي أفغانستان في المادة الثانية «ان الهدف من هذا الاتحاد هو اقامة دولة اسلامية في أفغانستان». وفي المادة

الثالثة «ان هدفنا منبثق من قوله تعالى: «ان الحكم الا   »، فالحاكمية المطلقة لرب العالمين».

* ان المعركة في أفغانستان ما زالت قائمة وعلى أشدها وتشهد ذرى «الهندكوش» ـ جبال معروفة بهذا الاسم ـ في أفغانستان معارك لم يشهد التاريخ الاسلامي عبر قرون كثيرة لها نظيرا.

* لقد سبق الاسلاميون غيرهم الى قيادة المعركة في أفغانستان، فالذين يقودون الجهاد في أفغانستان هم أبناء الحركة الاسلامية والعلماء وحفظة القرآن بينما الأمر مختلف في فلسطين. فلقد سبق الى القيادة أناس خلطاء منهم المسلم الصادق ومنهم الشيوعي ومنهم المسلم العادي ورفعوا راية الدولة العلمانية.

* ان القضية في أفغانستان ما زالت بيد المجاهدين، وما زالوا يرفضون المساعدة من الدول المشركة ـ حسب تعبيره ـ بينما اعتمدت الثورة الفلسطينية كليا على الاتحاد السوفياتي فتركتهم روسيا في أحلك الظروف يواجهون مصيرهم بأنفسهم أمام المؤامرة العالمية، وأصبحت القضية لعبة في يد الدول الكبرى تقامر على الأرض والشعب

والعرض في فلسطين، بل تابعتهم فوق أرض الدول العربية حتى أنهت وجودهم العسكري وصفتهم جسديا وعسكريا.

* ان حدود أفغانستان مفتوحة أمام المجاهدين، فهناك أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر من الحدود المفتوحة، بالاضافة الى أن حول أفغانستان منطقة القبائل التى لا تخضع لسلطة سياسية، وهذه تشكل درعا حصينا للمجاهدين. أما بالنسبة لفلسطين فالأمر مختلف تماما، فالحدود مغلقة والأيدي موثقة وعيون المسؤولين متربصة بكل من حاول أن يخترق حدودهم لقتال اليهود.

* ثم ان شعبها فريد في صلابته وعزته، وكأن ا أعد جبالها وأرضها للجهاد. (يقصد أفغانستان). فلسطين.. في ما بعد لا شك أن هذه النقاط أو التبريرات الستة التي جعل عبد ا عزام بمقتضاها الجهاد في أفغانستان أولى من الجهاد في فلسطين، تكشف بوضوح عن دقائق رؤيته المليئة بالتناقض والتي بدا من خلالها أنه يؤجل قضية فلسطين الى الأبد، وأن له أغراضا أخرى مما يقوم به في أفغانستان. ومن الطبيعي أن نتوقف هنا لنسجل عدة ملاحظات على هذه الرؤية: فأولا: تعبر النقطة الأولى، الخاصة بوضوح «راية الجهاد

في أفغانستان»، عن أن الشيخ كان يرى أنه لا تحرير لأي أرض مغتصبة اذا لم يكن الهدف دينيا، وانه يمكن ترك الأرض مغتصبة اذا لم يعلن من البداية أنها ستكون محلا لاقامة أرض اسلامية، وهو أمر غريب. لكنه طبيعي في منهج تفكير الأصوليين، فالشعار عندهم أهم من الهدف. وكأنه اذا تم تحرير الأرض من المحتل بدون اقامة الحكومة الاسلامية كما يريدونها فان من الأفضل أن تبقى محتلة. ولا ينسينا هذا أن أولئك الذين رفعوا الشعار في دستور اتحاد مجاهدي أفغانستان لم يطبقوه بعد نهاية الجهاد وانما اختلفوا وتصارعوا ودب بينهم قتال لا يقل عنفا عن قتالهم للروس.

ثانيا: ينعدم المنطق حين يتحدث عبد ا عزام عن ان «أفغانستان فيها معركة على أشدها وما زالت قائمة»، فالمعركة في فلسطين لم تهدأ، ولم تكن قد انتهت، ولعلها المعركة الأكثر نزفا للشهداء منذ زمن طويل وارتفعت سخونة أحداثها على مراحل مختلفة وأدت الى مجموعة كبيرة من الحروب الاقليمية بين العرب واسرائيل. ثم من قال ـ لو افترضنا صحة ذلك ـ ان معركة نائمة يجب أن تبقى كذلك، اذا كان الجهاد كما يصفه عبد ا عزام، فرض عين؟

ثالثا: ليس منطقيا تأجيل الجهاد في فلسطين لأن الذين يبادرون بالقيادة ليسوا من الحركة الاسلامية، ومعنى كلام الشيخ الراحل أنهم يريدون قيادة أي عمل من دون شريك كشرط لقيامهم بالجهاد، وبالتالي انعدام فرص التعاون مع أي أحد من التيارات الأخرى حتى لو كان الهدف وطنيا وعاما. رابعا: ليس صحيحا أن قضية أفغانستان كانت بمعزل عن دعم من تسمى بالدول المشركة، بل ان قضية أفغانستان كانت ساخنة أساسا لأن قائدة «الدول المشركة» ـ حسب مفاهيم جماعات التطرف ـ وهي الولايات المتحدة، هي التي قامت بجهد كبير لاستغلال القضية الأفغانية ودعمها ودعم المجاهدين ومن معهم تحقيقا للمصالح الأميركية. وفي مراحل أخرى كثيرة تحدث الاسلاميون عن قبولهم لهذا الدعم لاتفاق هدف المصلحة حتى يدرأوا عن أنفسهم القول بأنهم عملاء للولايات المتحدة. خامسا: تبدو نقطة الحديث عن الحدود المغلقة هي الأكثر منطقية، ولكن حتى هذه أثبتت الأيام عدم صدقها، اذ ان المقاومة الفلسطينية باتجاهاتها العديدة خاضت معركة من الداخل كانت، ولم تزل بمثابة العمل النضالي الجهادي العظيم الذي حقق ازعاجا كبيرا لاسرائيل بدون أن

تفتح أي حدود، فالمقاومة تنبع من الداخل قبل الخارج في غالبية الأحيان. ومن هنا تكتسب كذلك جزءا كبيرا من مصداقيتها وشرعيتها. أما النقطة السادسة التي يتحدث فيها عبد ا عزام عن أن «جبال الهندكوش وأفغانستان تبدو وكأنها قد خلقت لهذا الجهاد، وعزة شعبها وصلابته»، فهذه نقطة مثيرة للخفة والاستخفاف، فهي فضلا عن أنها تعبر عن رؤية عبد ا عزام لصلاحية أرض دون أخرى للجهاد، فانها تنفي عن الشعب الفلسطيني عزته وصلابته، وهو مبرر يتجاهل تماما أن هذا الشعب العزيز الصلب «الأفغاني» هو نفسه الذي ظل على مدى سنوات طويلة تتوزعه ولاءات الدول وتبدلها بين القيادات والقبائل الأفغانية. وربما كان ذلك سر نكبته بعد انسحاب الروس. واجمالا، فان كل المبررات التي ساقها عبد ا عزام في فتواه تلك كانت تفسر: لماذا ذهب الى أفغانستان من وجهة نظره، لكنها لا توضح سببا أكيدا لتأجيل الجهاد في فلسطين. نظرية المسجد الآخر لكن هذه المبررات لم تكن لدفع حدة الانتقاد المستمر لعبد ا عزام في هذه الناحية، وقد ظلت الأسئلة تطارده من مكان لآخر، وأينما حل، وفي كل مرة كان الشيخ الراحل يضيف

أمرا ما لكنه اجمالا بقي محصورا في حتمية أولوية الجهاد في أفغانستان. في احدى محاضراته في الكويت سئل عن هذا مجددا فقال: «الجواب عندي وعندكم، فالحدود مقفلة، والقيود في الأيادي، والعرب قد يقتلوننا قبل أن يقتلنا اليهود، أنا قاتلت في فلسطين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، كنت مع المجاهدين، وبقينا حتى سحق العمل الفدائي في الأردن وأصبحت الرصاصة تودي بصاحبها، بحثنا عن بقعة أخرى نؤدي فيها فريضة الجهاد، واذا ما استطاع الانسان أن يقاتل في هذه البقعة ينتقل الى بقعة أخرى، أنا فلسطيني، وجرحها في أعماقي، وكل أحلامي وكل أماني أن أنقل الصورة المشرقة التي شرف ا بها البشتونية فوق ذرى جبال الهندكوش الى جبال الخليل». وقد قيل له: يا شيخ عبد ا الصعوبات التي خلقت بعد عام ١٩٧٠ لا تعني توقف الجهاد فوق الأرض العربية. الجهاد معناه أن الواحد يجاهد في سبيل ا ويموت في سبيل ا . الجهاد مستمر مهما كانت الصعوبات، ولا يتوقف اذا خلقت الظروف غير المواتية في سنة من السنين، ولا يعني هذا أن ننتقل على بعد خمسة آلاف كيلومتر؟ وكان يرد: «الجهاد مستمر، ولكنه ليس محصورا في بقعة

واحدة، اذا هدم المسجد الذي بجانب بيتك لا يجوز لك أن تعطل صلاة الجمعة حتى تقيم مسجدا آخر، صل في مسجد آخر، ريثما تبني مسجدا جديدا، أنا أصلي في الأردن، أصلي في أفغانستان. الذي يقتل في أفغانستان يقتل شهيدا اذا كانت نيته ا عز وجل. ا لم يفرق بين عربي ولا أعجمي لا في كتابه ولا في سنة نبيه. نحن نظرتنا نظرة اسلامية وليست نظرة قومية أو علمانية. حيثما وجدنا بقعة نؤدي فيها هذه الفريضة يجب علينا أن نؤديها». ويعني مضمون هذا الكلام أن الشيخ لم يكن يستطيع اقناع أحد بوجهة نظره، فهو مرة يلجأ الى الأسلوب العاطفي: «فلسطين جرح في أعماقي»، ومرة يضع المسؤولية على العرب الخونة في رأيه «الحدود مقفلة»، و«قد يقتلوننا قبل أن يقتلنا اليهود»، ومرة ثالثة يلجأ لنظرية «هدم المسجد» غير المقنعة. اذ ما الذي يدفعه الى الصلاة في هذا المسجد البعيد، لماذا لا يختار مسجدا أقرب، لبنان مثلا. وقد كان يعاني من احتلال اسرائيل والمقاومة الفلسطينية تعاني من حصار رهيب بداخله في نفس توقيت بداية الجهاد الأفغاني؟

لكن الأمر الأهم هو أن كل كلام عبد ا عزام في هذه القضية المثيرة للجدل كان يعني بوضوح اعلاءه النظرة الاسلامية الدينية على النظرة القومية. وأنه حتى لو كتب له العمر في ما بعد لم يكن ليجاهد في فلسطين لو أنه رأى حتمية الجهاد في البوسنة أو الشيشان مثلا، وكان قد بدأ قبل مماته بالفعل بالحديث عن مأساة المسلمين في يوغوسلافيا وألبانيا. لقد كانت هذه النظرة الاسلامية الخاصة به والتي يؤجل بها الجهاد في فلسطين، تتكرر بوضوح في أحاديثه. وفي كاليفورنيا على سبيل المثال، سئل الشيخ عبد ا عزام مجددا: الجهاد الفلسطيني بدأ منذ أربعين سنة والجهاد الأفغاني بدأ منذ عشر سنوات، فكيف انتصر الأفغان ولم ينتصر الفلسطينيون، ثم بعد أن ينتصر المجاهدون الأفغان، وتقوم الحكومة الاسلامية، ما هي نظرتكم للجهاد في فلسطين؟

ان الشيخ الراحل يتحدث بداية عن نظرية التآمر العربي على فلسطين «كل الدول العربية سلمتها لليهود»، وحين يتغلب الشعب الفلسطيني، فان الدول الغربية تضغط على الدول العربية حتى تقبل الهدنة وخلالها يأتي السلاح والمال

والرجال لليهود. ثم بعد أن يغرق الشيخ عبد ا سائله في فيض من المعلومات التاريخية حول قصة قضية فلسطين يقول: «أنا كنت أقاتل مع منظمة فتح في فلسطين، فصار خلاف بيني وبينهم فسألت المثقف الثوري، قلت: ما دين فتح؟ قال: فتح لا دين لها، فبقي الاسلام بعيدا عن المعركة في فلسطين. ومن هنا نحن لا نلوم الاسلام لأن الاسلام بقي بعيدا عن المعركة. الذين دخلوا المعركة دخلوا بثياب علمانية وقومية وحمراء وبيضاء وغير ذلك. أما الاسلام فلم يلبس ثوبه الا سنة ١٩٨٨ عندما قامت «حماس» وأعلنت أنها تقاوم في فلسطين باسم الاسلام، تصوروا «حماس» عندما أعلنت أنها فرع من فروع الاخوان المسلمين في نفس الأسبوع تحرك العالم كله، كل العالم، اجتمع، وأنشأوا دولة للفلسطينيين في تونس، ليس لها سلاح تقاتل به، ليس لها أرض تقف عليها، وفي يوم وليلة اعترفت بها ست وأربعون دولة. والآن صارت مائة». وبغض النظر عن هذا الخلل السياسي والمفاهيم المغلوطة فان هذا لم يدفع الشيخ عبد ا الى أن يدعو لمساندة جهاد حماس، ولم يجمع سنتا أو مليماً لصالح الجهاد في فلسطين حتى حين تحقق له ما كان يتحدث

عنه وهو أن هناك من يرفعون شعارات الدين في فلسطين، لكنه يمضي مضيفا: «الدولة الفلسطينية قامت فقط لاسقاط حماس واسكاتها ولايقاف الانتفاضة. ان شاء ا لا يوقفونها». ويكتفي عزام بالدعاء.

اتجاهات جديدة لقد ظل الشيخ عبد ا يتحدث بهذا المنطق الى أن بدأ يتحول تدريجيا في اتجاهات أخرى ردا على ما يقال عن هذا الفلسطيني الذي يحارب من أجل أفغانستان، وليس من أجل فلسطين. وقد كان في هذه الاتجاهات الجديدة غير مقنع أيضا:

* فضيلة الشيخ ما رأيك لو أن الفلسطيني حمل البندقية وصرخ ا أكبر، ما هي المدة التي يمكن أن تحرر بها فلسطين؟ قال: «لو فتحت الدول العربية حدودها، ولو اشترك كل الفلسطينيين المتدينين كما يشترك الشعب الأفغاني الآن في المعركة لا أظن الأمر يطول حتى يخرج اليهود من فلسطين».

* بخلاف هذا الشرط فان الشيخ عبد ا بدأ يتحدث عن عهد بينه وبين الأفغان ينص على أنه سوف يتم التفرغ بعد معركة كابل على أن يبدأوا معه معركة القدس. في هذا السياق

يقول: «الآن الأفغاني يقول نريد أن ننتصر هنا لنقتل في رحاب المسجد الأقصى. كثير من الأفغانيين يقولون اللهم حرر على أيدينا كابل ولا تمتنا الا في بيت المقدس. كلهم يقولون ان قضيتنا الأولى هي قضية القدس. وقضية فلسطين ولكن هذه الدواهي التي حلت بنا شغلتنا». ولم تنته حتى الآن الدواهي التي شغلت الأفغان، لكن عبد ا عزام كان يكمل مضيفا: «سياف، حكمتيار، رباني، خالص، كلهم يأتون عندي. والدي عمره ٩٠ سنة، ما جلس مع واحد منهم إلا ويأخذ عليه العهد أن يأتي للجهاد في بيت المقدس بعد أن ينتهوا من كابل. وكلما لقي واحدا منهم يقول لهم العهد، ويقولون له نحن على العهد ان شاء ا ».

* ثم عبر عبد ا عزام نفسه وليس والده عن أنه كان ينتوي العودة الى بلاده: «قال لي حكمتيار: بماذا تفكر الآن؟ قلت له نفكر أن نوصلكم الى كابل ان شاء ا معززين منتصرين ونرجع الى فلسطين. قال: لا، تبقى معنا سنة أو سنتين. نقيم أعمدة حكمنا جيدا، ثم أذهب واياك الى بيت المقدس. هم يعيشون القضية كاسلام، كدين، ليس سياسة. وبالنسبة للأفغان فلسطين قضية ثالث الحرمين الشريفين، قضية قرآنية

وربانية».
* ان حكمتيار لم يسافر في ما بعد الى فلسطين جهادا، ولكنه غادر الى ايران فرارا من أعدائه الأفغان. وهذه الملحوظة لا تنفي أن نشير الى اتجاه آخر ظل مستقرا في ذهن عبد ا عزام، يثير حنقه وغضبه، وكرره كثيرا: «لماذا لم تعترف سوى أربع دول اسلامية بأفغانستان. لأنهم خائفون من أميركا، السعودية وماليزيا والسودان فيها بقية من روح اسلامية، تتحدى مشاعر الروس ومشاعر الاميركيين. الدولة الفلسطينية التي اعترفوا بها ليس لها شبر واحد على الأرض تقف عليه، معلقة في الهواء، ليس لها موقف المنتصر. الأفغان حرروا أكثر من ٩٠ من أرضهم، منتصرون، يتكلمون من فوق قمة المجد ولا يعترف بهم أحد».
* ثم يعود الشيخ في ما بعد الى كلام يشبه كلامه الأول: «أفغانستان مثل قضية فلسطين هي قضية الاسلام الجريح في كل مكان الذي يحارب بكل سنان. اذا كتب ا لنا أن نحرر أفغانستان كاملة فقد أعددنا أجسادنا وأرواحنا وكسر حاجز الخوف في نفوسنا وتخطينا عقدة الخوف على الرزق، وأول ما يأتي في أذهاننا ونحن نمتطي ذروة الهندكوش، كيف

نمتطي جبل المكبر وذرى جبال الخليل وجبال نابلس، وكيف ننقل هذه الصورة المشرقة من أفغانستان الى فلسطين ان شاء ا قريبا».

«الرايات السود» ـ عبد ا عزام من الجهاد إلى الاغتيال (٣) * الرجال قبل المال

عبد ا كمال

* عبد ا عزام كان يحلم بعشرة آلاف عربي يمكن أن يغيروا وجه المعركة في أفغانستان

* كان يتعمد تقريظ الدول التي لا تقدم تبرعات كافية ويهاجم أميركا في واشنطن كانـت لـدى عبـد ا عـزام استراتيجية محددة، لا استطيع أن أجزم بأنها كانت مرسومة في اطار خططي واضح ومحدود، ولكـن يمكـن أن نقـول بصدق إنها كانت استراتيجية عفوية وفطرية قومتها التجربة، الأساس الأصيل لهذه الاستراتيجية كان هو فتـواه الأشـهر «الجهاد أهم فروض الأعيان». وكان هدفه المعلن من الفتوى هو جمع أكبر قدر من المال والرجال. وقد سـرت الفتـوى كالنار في «الهشيم»، لا سيما في كثير مـن دول الخلـيج.. وخاصة أن مدناً عديدة في الجزيرة العربية كانت محطـات رئيسية في رحلات عبد ا عزام المكوكية والمتواصلة مـن

أجل تحقيق غرضه. وعلى الرغم من أن عبد ا عزام نجح إلى حد بعيد في اجتذاب عدد كبير من شباب الخلـيج إلـى أفغانستان الا أنه يحسب كذلك للخليج ولعلماء الدين فيه أنهم كانوا أول من اعاد تقييم هذه العملية التي كان يقوم بها. بـل ان هذا جرى في وقت مبكر للغاية وبالتحديد في عام ١٩٨٦.

في هذه الاثناء، كان «أبو عبد الـرحمن» وهـو (سـعودي أفغاني) اسمه الأصلي حسن بن عبد ربه السريحي، واحـدا من ابرز تلاميذ الشيخ الراحل بن عثيمين، وكان بن عثيمين قد ايد فتوى عزام، وبحكم أنه أبو عبد الرحمن الأكبر سـنا بين تلاميذ شيخه طلب منه بـن عثيمـين أن يـذهب إلـى أفغانستان ويستوضح الأوضاع ويقف علـى الحقـائق، وأن يلتقي المسؤولين عن الجهاد، ليتبين للشيخ بن عثيمين ما هي طبيعة الموقف.. وسط لغط رهيـب بـين بعـض الشـباب السعودي حول حتمية الجهاد فـي أفغانسـتان. وفـق هـذا اخضعت الهالة التي صنعها عبد ا عـزام للتعتـيم، ومـن عجب أن هذا الحدث الهام لم يشر اليه أي من العرب الأفغان في أي مرة تحدثوا فيها عن عزام، وقد روى السريحي مـا جرى في حوار سابق نشرته جريدة «الشرق الأوسط» فـي

تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١، من الضروري هنا أن نستند اليه ليس فقط لأنه المصدر الوحيد حول ذلك، ولكـن أيضـا لأن الوقائع موثقة وهي ذات دلالات مهمة. لقد سافر «أبـو عبد الرحمن» من السعودية إلى بيشاور. وفي المطار وجـد شابا عربيا في انتظاره دونما اتفاق، اذ على ما يبدو فان هذا كان دور مندوبي مكتب خدمات الجهاد الذي اسسه عبـد ا عزام، ورحب المندوب بأبي عبد الرحمن بمجـرد ادراكـه لملامحه العربية، وقال له: هل ترغب في لقاء أحـد أمـراء الجهاد؟، فأجابه الوافد الجديد بالايجاب، وأخذه المندوب إلـى مكتب خدمات المجاهدين. فلما لم يجد «أبو عبـد الـرحمن» عبد ا عزام طلب لقاء أحد قادة الجهاد الأفغـاني، فأخـذوه إلى مقر الجمعية الاسلامية التي يتزعمها برهان الدين رباني ولم يجده وقالوا له انه سوف يعود بعد أسبوع. فـي صـباح اليوم التالي اتجه أبو عبد الرحمن إلى أفغانستان، وأقام شهرا كاملا بين المجاهدين الأفغان، وفوجئ بأن الأفغان توقعوا أنه مندوب إحدى الجهات الاغاثية وأنـه يمكـن أن يقـدم لهـم المساعدة، وحاولت كل فئة ـ حسب روايته ـ أن تسـتميله لتظفر بحصيلة أكبر من التبرعات، وحين عاد إلى بيشـاور

التقى رباني وقال له انه مبعوث الشيخ بن عثيمين وأطلعه على ردود فعل الفتوى التي أصدرها ويوزعها عزام بين الشباب في السعودية، فقال له رباني: أنت جئت إلى هنا، وشاهدت الأفغان، وهم كثيرون، لهذا نحن لسنا في حاجة إلى المزيد من المجاهدين، الذي نحتاجه فقط هو تجهيز المجاهدين من الأفغان «إننا في أمس الحاجة إلى المواد الاغاثية والاعانات المادية أكثر من أي شيء آخر». اكتفى «أبو عبد الرحمن» بهذا اللقاء، وعاد إلى السعودية، حيث التقى شيخه الذي أرسله في مسجد طيني في منطقة عنيزة، وفيما يبدو فان الشيخ بن عثيمين أدرك أنه مقبل على أمر خطير، ولذا وضع مسجلا للصوت أمام أبي عبد الرحمن، وفي حضور تلميذ آخر. أدلى العائد من أفغانستان بشهادته، ثم حين انتهى أجاب على مجموعة من الأسئلة التي طرحها عليه الشيخ.. وبعدها أفتى بن عثيمين بأنه «لا ينبغي للشباب أن يذهبوا للجهاد وإنما العمل على مد يد العون والمساعدة لاخوانهم عن طريق الهيئات الاغاثية وأن يتفرغ الشباب لطلب العلم». وتم تداول الشريط، وراج بين عدد كبير من الشباب السعودي، وكانت النتيجة أن واجه «أبو عبد

الرحمن» حملة قاسية من شباب آخرين تتهمه بتضليل الشيخ بن عثيمين، وأنه بالتالي يعمل على التقاعس عـن فريضـة الجهاد في أفغانستان، وكان التيار جارفا، والخطب تلقى دعما للجهاد في أفغانستان ليس فقط في كل المساجد السعودية تأثرا بما قال وأفتى عزام وإنمـا أيضـا فـي داخـل الحـرمين الشريفين.. وما كان من «أبو عبد الرحمن» الذي لـم يقـو بالطبع على صد الحملة الا أن ذهب لشيخه طالبا النصـيحة فقال له: «ما عليك لا خراس الألسنة الا أن تفعل مثل هؤلاء الذين لا يعرفون مصلحة أنفسهم وتعود إلى أفغانستان وتلتقي قادة آخرين غير رباني، ثم تعود إلى المملكة لتخـرس هـذه الألسنة». لم تنته القصة بعد. ذلك أن حسن بن عبـد ربـه السريحي عاد إلى أفغانستان في عام ١٩٨٧ وهـو يقـول: «عندما أردت حجز تذكرة وجـدت جموعـا قـد سـبقوني وحجزوا للسفر إلى إسلام اباد، كان معي على نفس الرحلـة نحو ٢٠ شابا سعوديا، من مختلف المدن، وفي بعض الأحيان كان الرقم يصل إلى ٧٥ شابا في كل رحلة، أي نحـو ٢٢٥ شابا كل أسبوع.. ففي الأسبوع ثلاث رحلات». في بيشاور، وبعد عام من الرحلة الأولى، لم يكـن هنـاك فـرد واحـد

للاستقبال، كانت هنـاك وجـوه عديـدة مهمتهـا تخلـيص الاجراءات وتيسير عملية الوصول. حين التقاه كان عبـد ا عزام يخطب في جمع من الشباب، ثم توجه إلى أبـي عبـد الرحمن سائلا: ما هو اسمك؟ ومن أنت؟ فأجاب: أبـو عبـد الرحمن، فرد عليه الشيخ: لدينا هنا كثيرون يسمون «أبو عبد الرحمن»، قلت له: هذا هو لقبي منذ الصغر، فقال الشيخ عبد ا : لا.. لا بد أن تغير لقبك.. ورد السعودي المتبـرم: لا.. لن أغير لقبي.

كان في معية أبو عبد الرحمن من يعرفونه، لأنهـم من حيث أتى من مكة المكرمة، ولذا فان الشيخ عبد ا قال في هذه اللحظات: اذا أردتم أن تبقوا هنا أهلا وسـهلا.. واذا أردتم غير ذلك فهذا يرجع لكم. وتحرك السعوديون الواقفون مع أبي عبد الرحمن الذي كان قد أعلن عـن رغبتـه فـي الاتجاه إلى القتال بسرعة، ردا على الهجوم الذي تعرض له في بلده، وحين انسحب الشباب كان رد فعل الشيخ ـ حسب رواية أبي عبد الرحمن ـ غاضبا، اذ رفع صوته قائلا: «هذا لا يجوز. اذا كنت لا ترغب في الجلوس معنا.. على الأقـل أقنع هؤلاء الشباب بأن يبقوا للتدريب.. لا أن يذهبوا كلهـم

معك». وخسر الشيخ عبد الله هذه المجموعة مـن الرجـال. استراتيجية عزام لهذه القصة أكثر من دلالـة، كانـت هـي الهدف من أن نرويها وهي:

ـ كانت قد بدأت بالفعل فيما بعد منتصف الثمانينيات مراجعة خجولة للفتوى التي قال بها عبد الله عزام. ـ رغـم هذه المراجعة الا أن الشيخ عزام كان قد بدأ يحصد بالفعـل ثمار سنوات طويلة من الحملة الدعائيـة المكثفـة لصـالح «الجهاد الأفغاني».. وكانت أفواج الشـباب تتـوإلى علـى بيشاور. ـ أنه ـ أي عزام ـ كان حريصا كـل الحـرص على أن يبقى في معيته أكبر عدد من المجاهدين العرب إلى درجة توفير مندوبين للاسـتقبال وتنميـة مكتبـه لخـدمات المجاهدين واعداده معسكرا للتـدريب البـدني والعسـكري والاعداد الروحي. وبالتالي فان دعوته لم تكـن مـن أجـل الجهاد على اطلاقه، وإنما كانت هناك أهداف أبعد بالتأكيد. اذ كان له أن يتوقف عند حدود العمل الدعوي لكنه نقل الأمـر إلى المستوى التنظيمي والتدريبي.. ووصل به الأمر إلى حد الغضب اذا فقد عددا من الرجال جاؤوا تلبية لفتواه ولكنهم لا يريدون أن يجاهدوا في إطاره. لقد كانت الانتقادات الموجهة

إليه خصوصا وإلى الجهاد الأفغاني عموما قد بدأت.. وفـي خضم «الدعوة العزامية» المكثفة والمثمرة «مالا ورجـالا» كانت تتم لعبد ا عزام محاسبة شفوية دائمة، لكنه اتبـع ردا على ذلك استراتيجية ذات هدفين هما: تجاوز الانتقادات أولا، وزيادة الحصيلة من المال والرجال ثانيـا. ويمكـن شـرح الخطوط العريضة لهذه الاستراتيجية في ما يلي:

ـ التأكيد المستمر على حتمية الجهاد، ودعـم ذلـك بفتواه التي تقول ان «تارك الجهاد كتارك الصلاة والصـوم» على أو مع نطاق، ومعها فتـوى «الـدفاع عـن أراضـي المسلمين أهم فروض الأعيان».. ولأن هذا المعنى قد يؤدي إلى قيام الشباب بالاتجاه إلى أماكن عديدة للجهاد فانه كـان يتحدث كثيرا عن حتمية الجهاد في أفغانسـتان أولا.. وقبـل فلسطين.. فضلا عن أنه خشي أن يبتعد الشباب عـن يديـه فكان يروج فتوى ثالثة عنوانها «حتمية العمل في جامعة».. ثم حين كان يصل الراغب في الجهاد إلى باكستان كان يتلقفه مندوب عزام في لحظة الوصول. ـ النقطة الثانية في هـذه الاستراتيجية العزامية هي القيام برحلات مكوكية متواصـلة للدعوة للجهاد.. والحديث عن انجازاته مع التأكيد على مرارة

الواقع الأفغاني اجتذابا لمزيد من التبرعات. يقـول عبـد ا عزام «أنشأنا مكتبا للخدمات. يعني إننا خدم للجهاد.. أشـعر فعلا أن خدمة المجاهدين عبادة عز وجل.. نحن نتشـرف أن نحمل أحذيتهم ونوصلها لهم.. أنشأنا ٢٠٠ مدرسة داخـل أفغانستان.. ندفع مما نجمعه رواتب الأساتذة.. وأدخلنا فـي العام الماضي ٤٥٠ ألف كتاب دراسي.. وفي الأشهر الثلاثة الماضية طبعنا ١٦٠ ألف كتاب.. وأنشأنا قسـماً للترجمـة لتعديل أفكارهم ـ يقصد الأفغان ـ نطبع رسالتين في الشهر ـ خمسة عشر ألفا بلغة البشتو وخمسة عشر ألفـا غيرهـا بالفارسي.. وندخلها إلى أفغانستان.. وزعنا أكثر من خمسين ألف مصحف صغير.. ومائة ألف مصحف كبيـر.. ونـأتي بالمجاهدين في دورات تدريبية لمدة شهر.. يأكلون ويشربون وينامون في مركز فيه فيديو وأجهزة أخرى. ثم نعيـد كـل واحد إلى جبهته.. ونصدر مجلة الجهاد.. نطبع منها ثلاثـين ألف نسخة في الشهر.. ونصدر نشـرة «لهيـب المعركـة» أسبوعيا.. خمسة آلاف نسخة لكل أسبوع.. نطبع الكتب التي تهتم بالجهاد الأفغاني.. وأنشأنا قسما للصوتيات لنشر الفكـر الجهادي». ويعني هذا الكلام أن عبد ا عزام كـان يـدير

مؤسسة، ليس مفهوما لماذا حرص على انشائها بهذا الحجـم الضخم الأقرب للطبيعة العسكرية بينما كانت هناك هيئـات اغاثية واسلامية تقوم بالفعل بالعمل هناك، الا أنه في أوقات أخرى كان يتحدث كذلك عن شراء السلاح والـذخائر مـن القبائل على الحدود بين باكستان وأفغانستان، وفي هذا السياق لا يمكن ادراك حجم ما جمع عبد ا عزام مـن تبرعـات لتمويل عملياته تلك، لكن المؤكد أنه كان يجمع أموالا طائلة. في احدى الرحلات إلى الولايات المتحـدة، وبعـد أن اهـتم بافتتاح فرع لمكتب خدمات الجهاد في نيويورك، قال لعـدد كبير من الحضور: «فتحنا حسابا في «اندباندس بنك» والأخ مصطفى شلبي هو مسئول المكتب الرئيسي.. وسنفتح فرعـا في واشنطن باذن ا . وهناك حساب في اسلام أباد في «بنك أوف أمريكا».. وجدناه أدق البنوك.. لأن بعض البنوك قـد تتلاعب بالأموال اذا لم نتابعها. أي واحد يرسل شيكا لا بـد وأن يكتب رقم الحساب ويكتب اسمي ويرسله فـي رسـالة مسجلة على مجلة الجهاد في بيشاور.. والرسائل التي تأتيني يتسلمها الشيخ تميم العدناني مـدير مكتـب الخـدمات، وأي رسالة فيها شيك يكتب ايصال لصاحبها مباشرة ويرسله اليه،

أي واحد أرسل شيكا لنا ولم يصله ايصال فمعنـى ذلـك أن الشيك لم يصل، احيانا الشيك قد يسرقه أهل البريـد». فـي سياق التمويل كان عبد ا عزام كذلك يهـتم للغايـة بـدول الخليج والسعودية تحديدا، وفي هذا الاطار كان يعمـد إلـى أكثر من أمر:

أ ـ امتداح السعودية والجزيـرة بالتحديـد لجزيـل عطائها، باعتبار أنها أقوى مصادر المال والرجال: «شـعب الجزيرة جزاهم ا خيرا هم أكثـر شـعب قـدموا الجهـاد الأفغاني». ب ـ وكان عزام يعمد كذلك إلى خلق حالة مـن التنافس بين الدول والشعوب لكي يحصـل علـى تبرعـات أكثر.. وفي هذا قال مثلا: «يعني الشعب السعودي والشـعب الكويتي ثم الامارات، الكويت قدموا ناس أكثر.. أما بالنسـبة للأموال فهي جاءت أكثر من السعودية.. أكثر بكثير مما جاء من الكويت». وقد يصل الأمر إلى حد التقريظ ففـي قلـب الكويت قال: «الكويت كشعب قدمت.. أما الحكومة فنرجـو ا عز وجل أن يهديها.. لأن السعودية تسـاعد المجاهـدين والكويت تساعد روسيا.. الكويت دفعت ٢٥٠ مليـون دولار لروسيا بعد مؤتمر القمة وأقامت خط طيران مباشـراً بـين

الكويت وكابول.. أما الشعب الكويتي فجزاه ا خيـرا» ثـم يضيف: «الشعب السعودي قدم الكثير.. التجار يأتون هناك.. يقيمون المؤسسات، يقدمون أموالا ضخمة.. وهناك الهـلال الأحمر السعودي، ولجنة الاغاثة الشعبية التي يرأسها سلمان بن عبد العزيز حوالي مائة مليون ريال تنفق سـنويا علـى المجاهدين والمهاجرين وهناك الدعم الحكومي يزيد أضـعافا عن هذا». ج ـ كان عبد ا عزام يعمد كذلك إلى الاعـلاء من شأن الأثريـاء المتبـرعين، باعتبـارهم قـدوة: «أحـد المحسنين من الذين يعيشون الجهاد بأنفسهم الأخ أسامة بـن محمد لادن صاحب أكبر شركة في الشرق الأوسط قد جـاء بنفسه وماله في سبيل ا .. يتكفل بالشباب وتذاكرهم وكفالـة أسرهم واستئجار مساكنهم وتنقلاتهم وطعـامهم وشـرابهم.. وهو في خط النار الأول وأهل جلال أباد يسمونه خالد بـن الوليد» ثم يقول: «واحد مثل أسامة بـن لادن ومثـل وائـل جليدان، ومثل فلان من عائلات كبرى في السعودية يعيشون على فتات الخبز وتحت نيران القذائف». وجه المعركـة ولا تقف خطوط «الاستراتيجية العزامية» لجمع المال والرجـال عند هذا الحد بل انها تمتد إلى ما يلي:

ـ التأكيد على أهمية أن الرجال أهـم مـن المـال، وحتمية سفر المجاهدين إلى هناك: «نحن نريد على الأقل من كل مائة ألف شخص نريد فردا، لو جاءنا عشرة آلاف سوف يغيرون وجه المعركة، خاصة العرب الذين لهم مكانة عظيمة في نفوس الأفغان.. حاجتهم إلى الرجال أشد.. ونحن نقـول هذه عبادة ويجب على الناس أن يعبدوا ا هـذه العبـادة». ويختلف هذا بالطبع مع ما قاله ربـاني الـذي أكـد لـه أن أفغانستان ليست في حاجة إلى رجال. ـ كان عبد ا عـزام يعمد إلى التهويل من قيمة ما يقوم به المجاهدون الأفغـان، ويخلط بين دورهم ودور المجاهدين العـرب تحفيـزا لمـن يسمعوه بأن هناك نتائج ملموسة لما سيقومون به.. لقد كـان يؤكد على أنها معركة صعبة ولكنه كان في نفس الوقت يؤكد على أن هناك ثماراً للانتصار.. وقد وصل به الأمر في هذا السياق حد الحديث عن أرقام متخيلة للخسائر السوفياتية كان يقول: «في الفترة من ١٥ شباط (فبرايـر) حتـى ١ ايلـول (سبتمبر) ـ بدون أن يظهر تحديداً للتاريخ فـي الأصـل ـ أسقطوا ودمروا ٢١٥ طائرة، و٢٦٠ دبابة، و٢١٥٦ ناقلـة وسيارة، و١٤٨٥ مدفعا و٢٥ ألف قتيـل، بالاضـافة إلـى

النفقات اليومية على القوات الشيوعية فـي كابـل وهـي ٧ ملايين دولار يوميا». وبالطبع فان أحدا لم يكـن يسـتوقف الشيخ عبد ا ويسأله كيف يحدث هذا في ستة أشهر فقـط.. وبالتالي كان يمضي في اتجاه ترويج نفس المعنـى: «لقـد خسرت روسيا حتى بداية ١٩٨٨، ١٧ ألف دبابة، وواحـدا وعشرين ألف سيارة، و٢٠٨٠ طائرة ومثلها استهلك وقتـل وجرح من الروس ٥٠ ألف فرد.. وهذا الرقم باعترافهم لكن القتلى أضعاف ذلك». من المؤكد أن الاتحاد السوفياتي كـان قد حقق بالفعل خسائر كبيرة، والا فانه لم يكن لينسحب مـن هذه المطحنة العسكرية المستمرة لمدة عشر سنوات.. لكـن الشيخ عبد ا كان يتعمد المبالغة والتهويل جلبـا للحماسـة، وفي المقابل فانه لم يكـن يـذكر أي أرقـام عـن خسـائر المجاهدين الأفغان.. فقـط كـان يتحـدث عـن المعـاقين والمصابين.. بشكل عام حين يكون فـي مرحلـة اسـتدرار عطف المتبرعين. ـ في الاتجاه الآخر كان عبد ا عـزام حريصا تماما على ترويج ما يمكـن تسـميته «بالكرامـات الخرافية للمجاهدين العرب» ـ تحديدا ـ حين يتحدث عـن استشهاد أحدهم أو وصف معركة ما من أي نوع.. وفي هذا

السياق كان لديه اصرار شديد على أن يضفي مناخـا مـن القداسة حول شهداء الجهاد من العرب، إلى درجة أن أصدر كتابا عن الشهداء أسماه «عشاق الحور» ـ أي حور العـين ـ تضمن ما رواه رثاء في ذكر عديد منهم بل وأضاف إلى ذلك كتيبات أسماها «كرامات الأفغان العرب». يقول عبد ا عزام متحدثا عن شخص اسمه «مسعود البحري»: «النـور يخرج من قبره، وقد رأى النور أبو داوود العربي، وفـلان، وفلان.. وأكثر من نصف الشباب العربـي خرجـت مـنهم رائحة ذكية كرائحة المسك الأزفر». وقال عن يحيى سنيور الذي قابل صحفيا من فنزويلا قال عنه بعـد موتـه: «لقـد شممت رائحة المسك من دم يحيى، لقد بقي مستشفى بدر مدة أسبوع تقريبا كلما فتحت الغرفة التي سجي فيها يحيى يفـيح المسك في كل المستشفى».

ولم تكن الكرامات الخرافية وحـدها هـي الثغـرة الأساسية التي كان يواجهها عبد ا عزام في انتقـاد عمليـة تسويقه المستمرة للجهاد، كان هناك ما هو أهم:

كانت النقطة الأولى هي أن عبد ا عـزام يغـرر بأبناء الناس، وقد سئل ذات مرة: دكتور عبد ا هناك شكوى

من بعض أهالي الأخوة العرب الذين انضموا إلى الجهاد الأفغاني بشأن التغرير بأبنائهم وارسالهم إلى معارك لا تعنيهم بشيء خاصة أبناء الفلسطينيين الذين ترزح بلادهم تحت الاحتلال.. يقولون إن أبناءهم لم يخبروهم بشيء قبل أن يذهبوا إلى باكستان وأن هناك من يأخذهم قسرا عنهم فما رأيك؟.. وكان رد الشيخ عبد ا هو: أبناؤهم راشدون بالغون جاؤوا إلى باكستان يدرسون أو جاؤوا للجهاد.. لم آت إلى بيوتهم وسرقتهم ووضعتهم داخل سيارة.. أنا بينت الحكم الشرعي بالنسبة للجهاد وللأمة الإسلامية. ثم أضاف: «القاعدة الشرعية أنه لا استئذان في فروض الايمان، أنا بينت الحكم الشرعي فاذا جاءني أناس قلوبهم لا زالت حية ماذا أقول لهم.. أنا ما غررت بهم.. أنا بينت لهم حكم ربي.. ثم انني أمامهم وليس خلفهم.. وأخوض معهم المعارك». لم يكن عبد ا عزام بالطبع يتحدث عن عمليات غسيل المخ التي جرت للشباب.. ولم يكن في هذه الاجابات يتحدث عن أنه لم يكن فقط يتحدث عن مبدأ عدم الاستئذان.. وإنما كان كذلك يدعو لحتمية الهجرة وحتمية ترك الدراسة والوظيفة من أجل الجهاد.. ويغري عددا من الشباب الخليجي وغيره..

ويضرب لهم الأمثلة العديدة حول ذلك، لكن الحق يقال انه لم يكن وحده المسؤول عن ذلك. فقد كانـت هنـاك منظومـة ضخمة من المؤسسات والأجهزة الحكومية وغيرهـا التـي دفعت الآلاف دفعا في هذا الاتجاه. ـ وكانت النقطة الثانيـة في سلسلة الانتقادات التي توجه اليه تدور حول الصـراعات الدائرة بين فصائل الجهاد الأفغاني، ولا سيما حـين اقتـرب موعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان وفي ما بعد ذلك.. وقد كانت تلك كما هو معلوم واحدة مـن أهـم ملاحظـات الاحباط الاسلامي التي أوحت للبعض بأن سنوات طويلة من الجهد والجهاد قد وجهت إلى مالا يجب أن توجه اليه.. وفي المقابل كان عزام يرد بأكثر من وسيلة.. الأولى سلبية وتقوم على أساس أن الحديث عن هذه الصراعات إنما هو من صنع آلة الدعاية الغربية.. والثانية ايجابية وأساسها هو الاسـهاب في امتداح مميزات الشعب الأفغاني وجهاده.

الرايات السود ـ عبد ا   عزام من الجهاد إلى الاغتيال (٤) * اغتيال الشيخ المحبط

عبد ا   كمال

* قبل اغتياله بأسبوع روى عبد ا   عـزام بنفسـه محاولة اغتياله الفاشلة وتوقع أن تتم تصفيته هو وبن لادن

* أوصى بأن يتولى «أبو حذيفة» مكتـب خـدمات الجهاد من بعده.. يعاونه أبو سياف وأبو حمزة وأبو هـاجر

اغتيل عبد ا   عزام في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٩ لكنه كان قد كتب وصيته الشرعية قبل ذلك بثلاث سـنوات فـي أغسطس (آب) ١٩٨٦.

في هذه الوصية المكونة من أربع صـفحات والتـي وزعها في ما بعد «مركز الشهيد عبد ا   عزام الإعلامـي» قال: «أنا الفقير إلى ا   تعالى عبد ا   بن يوسف عزام.. كل حساباتي، ما لي وما علي، عند المحاسب ابن محمد المقدس. سدد كل ما في ذمتي للمجاهدين. ولي في حساب المجاهدين ستة آلاف دولار، وعشرون ألف روبية».

وبعد تقديم طويل عن فضل «الجهاد»، وأن «جوار المسجد الحرام لا يمكن أن يقاس بالجهاد في سبيل ا »، وتأكيده على الخطوط العريضة لفتواه «الناس كلهم آثمون بسبب ترك الجهاد سواء كان في فلسطين أو أفغانستان أو أية بقعة من بقاع الأرض ديست من الكفار ودنست بأرجاسهم»، «ولا إذن لأحد اليوم في القتال والنفير في سبيل ا ، لا إذن لوالد على ولده، ولا زوج على زوجته، ولا دائن على مدينه، ولا لشيخ على تلميذه، ولا لأمير على مأموره»، بعد أن قال هذا وأكد للمسلمين «حياتكم الجهاد، عزكم الجهاد، ووجودكم مرتبط ارتباطا مصيريا بالجهاد»، بعد هذا وجه وصيته لأطراف عدة:

يا أيها الدعاة: لا قيمة لكم تحت الشمس إلا إذا امتشقتم أسلحتكم وأبدتم خضراء الطواغيت والكفار والظالمين.

يا أيها الدعاة إلى الإسلام: احرصوا على الموت توهب لكم الحياة، ولا تغرنكم الأماني.. ولا تطيعوا أحدا في الجهاد.. لا إذن لقائد في نفير الجهاد.

يا علماء الإسلام: تقدموا لقيادة هذا الجيل الراجع إلى ربه، وإياكم وموائد الطواغيت.

يا أيها المسلمون: طال رقادكم واستنسر البغات فـي أرضكم، أين زمجرة الأسود، متى تثور على القيود.

يا معشر النساء: إياكم والترف لأنه عـدو الجهـاد وتلاف للنفـوس البشـرية، واحـذرن الكماليـات واكتفـين بالضرورات وربين أبنـاءكن علـى الخشـونة والرجولـة والبطولة والجهاد.

يا أيها الأطفال: تربوا على نغمات القـذائف ودوي المدافع وأزيز الطائرات وهدير الـدبابات وإيـاكم وإنعـام الناعمين وفراش المتخمين وموسيقى المترفين.

أما أنت أيتها الزوجة. «زوجته»: جزاك ا عنـي وعن المسلمين خير الجزاء، لقد صبرت معي طويلا، وكنت خير عون، عرفتك زاهدة في الحياة، فالزمي الزهد يحبك ا وازهدي بما في أيدي الناس يحبك الناس وآمـل مـن ا أن يجمعنا في الفردوس، كما جمعنا في الدنيا.

وأما أنتم يا أبنائي: فإنكم لم تحظوا مـن وقتـي إلا بالقليل، ولم ينلكم من تربيتي إلا اليسير، لقد شـغلت عـنكم

ولكن ماذا أصنع ومصائب المسلمين تذهل المرضـعة عـن رضيعها، وأهوال الأمة الإسلامية تشيب نواصي الأطفـال. أوصيكم بعقيدة أهل السـنة والجماعـة. وإيـاكم والتنطـع، وأوصيكم بالقرآن، وبالعمل مع الحركة الإسـلامية، ولكـن اعلموا أنه ليس لأمير الحركة أي سلطة عليكم بحيث يمنعكم من الجهاد.

وأما مكتب الخدمات فإنني أوصي بأن يكون مسؤوله بعدي أبو حذيفة الذي قدم عصارة شبابه للمكتب، وخاصـة ماله للمجاهدين، ونائبه أبو سياف. ويساعده أبو حمزة وأبـو هاجر، وعلى الإخوة أن يحفظوا لأهل السابقة سابقتهم وكـل مجاهد وسابقته ـ احفظوا للإخوة القدماء قدرهم، وتغاضـوا عن زلاتهم واحفظوا لهم مكانتهم وادعوا كثيرا لمن تكفل هذا المكتب بماله الخاص، الأخ أبو عبدا أسامة بن لادن، ادعوا ا أن يكثر من أمثاله، و أشهد أنني لم أجد له نظيرا فـي العالم الإسلامي.

وأما الأحزاب الجهادية.. فـاهتموا كثيـرا بسـياف وحكمتيار ورباني وخالص.. لأننا نأمل مـنهم أن يواصـلوا مسيرة الجهاد وأن يحفظوا مسـيرته مـن الانحـراف.. ولا

تنسوا القادة في الداخل وخاصة جلال الـدين وأحمـد شـاه مسعود وإنجيز بشير ومعفي ا أفضلي ومولوي أرسلان.

انتهت الوصية.. ويلحظ فيها ما يلي:

ـ استشعار الشيخ عزام بالخطر منذ وقت بعيد.. فقد كتبت الوصية في عام ١٩٨٦ وهو إن كـان يتجـول فـي جبهات القتال إلا أنه لم يكن يشارك في القتال.

ـ تقمص الشيخ لوضعية «رجل أمة»، بحيث وجـد أن الواجب عليه أن يوجه وصيته إلى كل الناس.

ـ إن الشيخ لم يكن يرى أن هناك دورا أبعـد مـن مجرد التبرع بالمال لأسامة بن لادن، وأن مسؤولية مكتـب الخدمات لا يجب أن تؤول له وإنما إلى شخص آخر اسـمه «أبو حذيفة».. وعلى الرغم من أن هذه الوصية كتبت فـي صورتها الأولى في أبريل ١٩٨٦ ثم أضيفت إليها تعـديلات أخيرة في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٦ إلا أن الشيخ لم يقم بأي تعديل آخر فيها حتى موته، وبالتالي فقد كان هـذا هـو موقفه الأخير من أسامة بـن لادن.. لا سـيما أن محققـي الوصية يقولون في هوامشها إن أسامة قد توقف عن التبـرع بالمال لمكتب الخدمات في عام ١٩٨٦ وهذا مفهـوم، فـي

ضوء أن بن لادن كان قد بدأ بالفعـل فـي هـذا التوقيـت الانفصال عن عزام.

لغم تحت المنبر قبل أسابيع من عملية اغتياله، روى عبد ا عزام بنفسه وقائع إحدى أشهر محـاولات اغتيالـه الفاشلة في بيشاور، كان الشيخ في الكويت يحضر مـؤتمرا صحافيا، وبدلا من أن يلقي كلمة قصيرة كما هو معتاد فـي مثل هذه المؤتمرات راح يتحدث طويلا عن تجربة السنوات ويرد على أسئلة لم تكن قد طرحت بعد، حتى وصـل إلـى الحديث عن محاولة اغتياله بوضع لغم تحت المنبر الذي كان سوف يخطب فوقه.

قال عبد ا عزام: «الأجهزة الغربية أثارت حـول المجاهدين العرب الشبهات.. تجاوزناها، قالوا ماذا نفعل.. لا طريق لإنهاء العرب إلا بتصفيتهم جسديا.. من البارز فـيهم عبد ا عزام، أسامة بن لادن.. فـلان.. فـلان.. هـؤلاء يصفون جسديا». وأضاف واصفا محاولة الاغتيال: «الجمعة التي قبل هذه دخلوا من النوافـذ أعلـى المسـجد.. نوافـذ المكيفات.. هناك المنبر الذي أخطب عليه.. ثلاث درجات.. وضعوا لغماً ضد الدبابات.. ولم يكفهم. المسجد الذي يصلي

فيه العرب أنا أخطب فيه.. واللغم يمكن أن يطير دبابة وزنها ٤٦,٥ طن. ما كفاهم.. وضعوا فوقه ٢ كيلو جرام تـي. إن. تي. شبكوها.. ركبوها بالبراغي «الصواميل» فـي خشـب المنبر.. قبل الصلاة بنصف ساعة جاء من ينظـف قطعـة القماش التي تغطي المنبر.. هكذا بقدر من ا وحده حـرك المنبر.. ووجد لغما وزنه عشرة كيلـو جرامـات.. وجـاء البوليس الباكستاني.. نحن مستعدون لكل هذا.. نحن مقتولون في بيشاور.. مقتولون في باكستان، مقتولون في أي مكان».

كان الشيخ يروي الواقعة المرعبة بكل ثقـة، وبـدا وكأنه يفعل أكثر من شيء في وقت واحد.. بدا وكأنه يقـول لمن دبروا المحاولة لقد بلغتني الرسالة لكنني غير مهتم.. بدا وكأنه يمضي قدما في ترويج المعـاني الأسـطورية حـول شخصيته لتدعيم الثقة الخليجية فيه.. بدا وكأنه يصـر علـى نقل الهدف التالي لمعركة الجهاد في اتجاه الأجهزة الغربية.. وبدا كذلك وكأنه يقول إنه وأسامة بن لادن في مركب واحد.. وإنهما هدفان للتصفية من جهات واحدة.

في هذا التوقيت كان الشيخ عبد ا قـد بـدأ يفقـد السيطرة الإجمالية التي كان يفرضها على الأفغان العـرب،

فقد توزعت المعسكرات وتنوعـت الاتجاهـات وأظهـرت السنوات المتراكمة أسماء من كل نوع.. كلها تريد ألا تبقـى في خلفية الصورة، بينما عبد ا عزام يحصد كل الأضواء.. لا سيما هؤلاء الذين دفعوا كثيرا من الأموال.

في هذه الأثناء وقع أمر غريب تندر الإشارة إليه في أدبيات وحوارات الأفغان العرب، فبعيد انسـحاب القـوات السوفياتية في فبراير (شباط) ١٩٨٩ كان عبد ا عزام لـم يزل هو أمير الجهاد بين العرب، لكن مشاكل مختلفة نشـأت بينه وبين عدد من الجماعات الإسلامية العديدة لا يتم الحديث حولها كثيرا وإن كان يمكن توقع محتواها.. وجرت انتخابات في ما بين الأفغان العرب لاختيار أميـر جديـد للجهـاد.. وانتخب أسامة بن لادن أميرا للجماعـات الإسـلامية فـي أفغانستان حسبما يقول أبو عبد الرحمن أو حسن بن عبد ربه السريحي وهو أحد الأفغان السعوديين الذين لم ينضووا فـي التنظيمات الانشطارية الإسلامية داخل أفغانستان.

لقد كان هذا انقلابا على الشيخ.. له مدلولات عديـدة رغم أنه حدث في صمت وهدوء.

كان أسامة بن لادن قد انفصل عن الشيخ بالفعل بداية من عام ١٩٨٧، وكان معسكر «القاعدة» الذي أنشأه موازيا لمكتب خدمات المجاهدين قد بدأ ينافس الشيخ عبد ا عزام. وفي حين كان أسامة بن لادن حريصا على أن يبدي احتراما خاصا للشيخ عبد ا كان بعض أعضاء القاعدة - وقد كان وقتها معسكرا لا تنظيما - يتطاولون على الشيخ الراحل في إطار خلق مناخ التنافس بين الأب الروحي والابن الصـاعد حالماً بإنشاء الخلافة الإسلامية.

ثلاث قنابل في يوم ٢٤ نـوفمبر (تشـرين الثـاني) ١٩٨٩ ركب الشيخ عبد ا عزام سيارته في الطريـق مـن بيته في بيشاور إلى مركز الخدمات، كان معه اثنـين مـن أبنائه، وفي الطريق وضعت ثلاث قنابل كان الهـدف منهـا بالتأكيد ألا يفلت عبد ا عزام هذه المرة كما أفلت من عملية المنبر قبل أيام. وقتل عبد ا عزام وقتل أبناؤه الثلاثة.

تقول أم محمد، زوجة عزام، راوية ما جرى: «بعـد خروج زوجي وأولادي من البيت بخمـس دقـائق سـمعت صوت انفجار شديد.. أحسست في قلبي شيئا.. خرجت مـن المطبخ.. دخلت الحجرة التي كانـت تجلـس فيهـا إحـدى

الزائرات مع زوجة ولدي محمد.. وسألتهما: هـل سـمعتما صوت الانفجار.. فأجابتا بالنفي.. وسألتاني: هل تعتقدين أن الانفجار في المسجد، قلت: لا أظن لأنه أبعد مـن المسـجد، فقالتا لي: توكلي على ا ، فخرجت من الحجرة ولكنني لـم أستطع أن أرجع إلى المطبخ، توجهت إلى الحجرة الأخـرى حيث يوجد الهاتف، اتصلت بمكتب الخدمات. فقالوا إنهـم لا يعلمون شيئا، فاتصلت بالمستشفى وقلت لهم: مـاذا حـدث للدكتور عبد ا عزام، فقالوا لي: لقد استشهد. فقلت: الحمـد .. إنا وإنا إليه راجعـون.. وعـدت أتصـل بمكتـب الخدمات.. وقلت لهـم: أرجـو أن تخبرنـي مـاذا حـدث بالتفصيل.. نحن لها وما جئنا من بلادنا إلا من أجلها.. أريد أن أعرف هل وقع الانفجار في المسجد أم فـي السـيارة.. فقال: في السيارة.. قلت: الحمد : إذن الأولاد الثلاثة الكبار استشهدوا معه».

إن تلك الرواية مذكورة بالنص في العدد الأول مـن مجلة «المرابطون» التي كانت تصدرها الجماعة الإسـلامية المصرية في بيشاور.

نهاية مأساوية، ويضفي مزيدا من المأساوية عليهـا أنها لم تزل غامضة الأسباب ومجهولة الفاعل، بل إن أقرب المقربين إليه تركوها هكذا بدون سعي إلى توجيه اتهام موثق لطرف ما، أو غوص في تفاصيل الواقعة.. بـل إن صـهره عبد ا   أنس يكتفي في حواراته ومذكراته المنشورة بالحديث عن أنه بلغه الخبر بينما هو مع أحمد شاه مسعود في شـمال أفغانستان: «وصلت إلى بيشاور فوجدتها في حال يرثى لهـا في ظل غياب الشيخ عبد ا   عزام، وقد لخـص حكمتيـار الصورة على حقيقتها عندما قال: صرت أنظر إلى العـرب يمشون في بيشاور كالأيتام بلا أب».

وإذا كان هناك اتفاق على تفاصيل واقعة الاغتيال.. فالسؤال هو: من الذي كانت له مصلحة في اختفـاء الشـيخ عبد ا   عزام من مسرح الأحداث؟ هناك أكثر من مسـتفيد.. نرصدهم في ما يلي:

- الولايات المتحدة الأميركية.. ففيما بعد انسـحاب الاتحاد السوفياتي كان عبد ا   عزام بكل ما يملك مـن قـوة وجاذبية قد بدأ يوجه دفة الحديث في اتجاه الولايات المتحـدة

وبعنف شديد، وقد كانت انتقاداته للولايات المتحدة تتركز في عدة نقاط.

ـ الإعلام الغربي الذي يقوده الأميركيون وتحركه أيدي اليهود يريد أن يشوه صورة الجهاد الأفغاني، يريد أن يمسح آثاره من نفوس المسلمين في الأرض حتى لا يعود نموذجا يحتذى.

ـ عزل الجهاد الأفغاني عن العالم وتحجيمه وإعادته قضية محلية بعد أن أفلت من أيديهم وأصبح قضية إسلامية عالمية.

ـ إقامة الحاجز النفسي بين الجهاد وقلوب المسلمين حتى تكف أيديهم عن العطاء.

ـ إن أميركا حاولت أن تنقذ الدب الروسي في آخر الشوط من أن يسقط تحت أقدام المجاهدين ولكنها فشلت.. وفي هذا يشير الشيخ إلى أن عملية اغتيال ضياء الحق رئيس باكستان في فترة الجهاد الأفغاني هي من فعل الأميركيين وكان هدفها إسقاط الدعم الباكستاني للجهاد. ويضيف الشيخ: «إن مقتل ضياء الحق جاء متأخرا جدا بعد أن تجاوز الجهاد الأفغاني مرحلة الحرج وعبر منحنى الخطر».

وبلغ الأمر بالشيخ أن استمر في ممارسة نفس الدور الذي كان يلعبه منذ سنوات وبإصرار شديد، مع دفاع مريـر عن قضية فقدت جذوتها مع تصاعد الخلافات بين الفصـائل الأفغانية، لكنه في سبيل إضفاء مزيد مـن الحماسـة علـى دعوته ولاستفزاز مشاعر المتبرعين الذين كان يسعى إلـيهم كان أن توقف عن الحديث عن الشيوعيين الملاحـدة، وبـدأ الحديث عن النصارى الكفار.. وكمثال على ذلك يقول: «إذا كانت الكنيسة جمعت في أميركا وأوروبا الغربية فقـط ١٥٩ بليون دولار - هكذا الرقم كما في نص مقال له - وأنشأت لنشر النصرانية ١٩٠٠ إذاعة ووزعت ١٢١ مليون إنجيل.. كل هذا فقط لعام ١٩٨٩ .. وجاء كـارتر بنفسـه لإغاثـة النصارى في الحبشة وإمداد جون قرنق لحرب المسلمين في جنوب السودان.. فماذا فعل المسلمون للجهاد الأفغاني». وإذا كانت لدى الولايات المتحدة مصلحة واضحة في ما قام بـه الشيخ عبد ا عزام في سنوات الجهاد الأفغاني، فإنها أيضا لها مصلحة في اختفائه باعتباره المحرك الأساسي والصوت الأعلى والأكثر إقناعا، فضلا عـن عـدم إدراكـه لأبعـاد المتغيرات الدولية الجديدة.. إذ انهـار الاتحـاد السـوفياتي

وتبدلت قياداته وبدأ العالم الغربي ومعه الولايات المتحدة في التفرغ لمتابعة الأوضاع المستجدة والتوازن مـع معادلاتهـا والاستفادة منها. ولم يكن هناك بالتالي فائدة مـن اسـتمرار الحشد المالي والعسـكري والبشـري مـن أجـل قضـية أفغانستان.. وإذا كان ضياء الحق قد اختفى من الساحة قـتلا إثر إعلانه تطبيق الشريعة الإسلامية وتحوله إلى اتجاه جديد هدفه حصد ثمار سنوات طويلة من العمل الإسـلامي فـي أفغانستان واستغلال هذا الزخم لصالح نفسه.. فإن عبـد ا عزام لم يكن قد أدرك بعد هذا.. وهو وإن انتبه لـه تحلـيلا وسجل ذلك كتابة إلا أنه لم يستجب للمتغيرات واقعيا وعمليا.

ولم تكن المشكلة بالنسبة لعبد ا عزام مقصورة على أنه يريد أن يواصل جمع الأموال واستيراد العرب، ولكنـه أيضا يريد أن ينشئ فعلا دولة إسلامية في أفغانستان، وراح يقاوم أفكار عقد مؤتمر دولي يمكن أن يؤدي إلـى حصـول نجيب ا ، الحاكم الشيوعي الذي كان مسيطرا على كـابول، حصوله على نصيب من الحكم بل إن الشيخ حـاول بقـدر الإمكان أن يصلح ذات البين في ما بين الفرقاء الأفغان.

ـ إسرائيل: يميل بعض المحللين، ولاسيما عدد من الأفغان العرب، وهم يتحدثون عرضا عـن واقعـة اغتيـال الشيخ عبدا عزام إلى القول إن هناك يدا لإسـرائيل فـي هذا.. إلا أنني شخصيا ـ ليس تبرئة لإسرائيل ـ لا أميـل لذلك التحليل.. على أساس أنه لم يبد بالفعل أي خطر علـى إسرائيل من الشيخ.. وليس صحيحاً أنه كان قد بدأ في تحويل دفة الجهاد إلى فلسطين.. فهو كان حريصا علـى اسـتكمال إنشاء الدولة الحلم في أفغانستان. كما أن إسرائيل فـي ذلـك الوقت كانت تميل بشكل أو آخر إلى تشجيع مثل هذه القيادات النضالية ذات الطابع الديني في الأراضي المحتلة ـ وهو ما قامت به مع حماس بداية ـ حتى تخلـق قـوى اجتماعيـة وسياسية قادرة على الطعن في شـرعية منظمـة التحريـر كممثل شرعي للشعب الفلسطيني، ولو اتجـه عـزام إلـى فلسطين لكان قد حقق لها بعض أهدافها.

ـ أسامة بن لادن: هناك اتجاهات قوية تحاول دائما الإيحاء بأن خلافا بين أسامة بن لادن وعبدا عزام قـد أدى إلى انتكاسة شديدة ربما دفعت أسامة لاتخاذ هذا القرار أو أن

هناك أحدا من أتباعه قد قام بذلك تخلصا من منافسه عزام لصالح أسامة وكيان «القاعدة» الصاعد.

في هذا السياق يتحدث صلاح السلمان، وهو أفغاني سعودي كان يلقب باسم «صلاح الدين»، عن أنه كان هناك خلاف كبير مع «القاعدة».. ويقول: «كان الشيخ عزام ضد أفكار القاعدة وضد تصدير الجهاد إلى دول أخرى».

ويميل الأفغان السعوديون في هذا الإطار إلى إلقاء عبء هذا الخلاف، وربما مسؤولية اغتيال عزام، على الأعضاء المصريين في «القاعدة».. يقول صلاح السلمان: «لا غبار أن المصريين الذين جاؤوا بحجة الجهاد استطاعوا الاستحواذ على الأهداف وتحويرها حسب مبتغاهم. كانوا يأتون إلى معسكراتنا في جلال آباد ويدعوننا للالتحاق بالتنظيم والتدريب على السلاح، ومازاد من نفورنا منهم أنهم كانوا يحرصون على الإمارة والبيعة.. وكنت شخصيا أذهب إلى الشيخ عزام وأذكر له ذلك، فيقول لي لا عليك منهم.

ويقول حسن بن عبد ربه السريحى: «صار احتكاك بين عزام والمصريين، كانوا يكرهونه لاختلاف المذهب ويريدون إفساح المجال لصعود نجم بن لادن.. وأنا أشك أن يكون بن

لادن وراء اغتياله.. أشك في المصريين». في المقابل فـإن المهندس سيد حسن وهو أفغاني مصري كان عضـوا فـي جماعة الإخوان المسلمين وتركها في ما بعد، يـرى أمـرا آخر.. ويقول: «إن مئات العرب نزلوا على عزام فرحب بهم ودفع بهم مباشرة إلى جبهات القتال، وهنا حدثت أكبر عملية اختراق في التاريخ الحربي، إذ لم يهتم عزام كثيرا بالبحـث في تاريخ من كانوا يلتحقون بصفوف «المجاهدين العـرب» فانضمت إليهم عناصر مخابراتية وعملاء لأجهزة أمن فـي دول أخرى، ولذلك حين أراد الأميركيون قتله لم يبذلوا جهدا كبيرا ووجدوا الخونة الذين أتموا المهمة». (نقلا عن «وقائع سنوات الجهاد» للمؤلف محمد صلاح).

وفي السياق ذاته يضيف سيد حسن: «قبل شهر مـن اغتيال ضياء الحق قابلت عبد رب الرسول سياف، وقال لي إن الأميركيين سعوا بعد انتهاء القتال إلى قتل ضياء الحـق، وعبد ا عزام، وأسامة بن لادن.. وأن ضياء الحق ـ حسب ما روى سيد حسن عن سياف ـ يتوقع أن تكون نهايته على يد الأميركيين ردا علـى محاولتـه جمـع القـادة الأفغـان المجاهدين وتوحيد صفوفهم ورفضه مساومة الأميركيين على

الغدر بهم. بل إن ضياء لم يكن يتحرك في أي مكـان فـي أفغانستان بدون أن يصطحب معه السـفير الأميركـي فـي باكستان، ورغم ذلك قتل ضياء الحق في حادث طائرة وكان معه السفير الأميركي الذي قتل أيضا».

لقد اختفى اثنان من أعضاء المثلث إذن في غضـون شهور قليلة، لكن الضلع الثالث أسامة بن لادن بقي على قيد الحياة. وفيما يبدو فإن المعنى الضمني لرسائل الاغتيال قـد وصله.. ولذا فإنه بعد ذلك بوقت قصير كان قد عـاد إلـى بلاده.. تاركا وراءه «القاعدة» بمن فيها. ومما يشير إلى هـذا المعنى أن أسامة بن لادن نفسه كان ثالث ثلاثة يتحدثون عن إدراكهم لهذه الرغبة الأميركية في التصفية.. فبعد ذلك بعـدة سنوات، وبعد ما قاله عبدا عزام وعبد رب الرسول سياف قال أسامة بن لادن: «الشيخ عزام حرض الأمة من أقصـى المشرق إلى أقصى المغرب. وفي تلك الفترة زاد نشاطه مع المجاهدين في فلسطين وبالذات مع «حماس» ودخلت كتبـه إلى داخل فلسطين لتحريض الأمة على الجهاد ضد اليهـود وخاصة كتاب آيات الرحمن ـ كنا أنا وهو فى مركب واحد. وكما لا يخفى عليكم خططت مؤامرة لاغتيال الجميع. وكنت

أطلب من الشيخ عزام أن يبقى بعيدا عن بيشاور نظرا لزيادة المؤامرات لاسيما بعد مؤامرة المسجد. واليهود كانوا أكثـر المتضررين من تحرك الشيخ عبد ا .. والمعتقد أن إسرائيل من خلال بعض عملائها من العرب هم الذين قاموا باغتيـال الشيخ.. الذين عاشوا في هذه الساحة يعلمون مـدى الصـلة القوية بيني وبين الشيخ عزام.. لم يكن هناك تنافس.. والشيخ عبد ا كان مجاله الدعوة والتحريض.. ونحن كنا في الداخل في جبال بكيت.. هو يرسل الشباب ونأخذ بتوجيهاته حول ما يأمرنا به». (نقلا عن حوار أدلى به بن لادن لقناة الجزيرة).

بدون دليل المؤكد في نهاية هذا التحقيق التاريخي أن الدكتور عبد ا عزام قد اغتيل بمؤامرة اشترك فيها عدد من الأفغان العرب.. وأنه قد اغتيل في أعقاب تيقن أطراف عدة أنه تجاوز دورا محددا.. وأن ذلك الاغتيال كان جزءا مـن خطة أوسع لإعادة ترتيب الأوضاع الأفغانيـة فـي ضـوء المتغيرات المحلية والإقليمية... وأن أحدا يملك دليلا يقينيـا على هوية مخططي المؤامرة.

المؤكد كذلك أن الشيخ نفسه كان قد بدأ دخول مرحلة من الإحباط والاكتئاب السياسي، وهذا ما يكشفه أحد أواخـر

مقالاته في مجلة «الجهاد» التي كان يصدرها عـن مكتبـه خدمات الجهاد.. إذ كتب تحت عنوان: «حسـبنا ا ونعـم الوكيل»: «لقد اطمأن الغرب تحت زعامـة العـم سـام أن مصالحه في أواسط آسيا وغربها لم تعد مهددة وبدأ يبحـث عن بديل لهذا الدب الذي أثخن بالجراح». «هكذا بـدأ لحـن البطولة الأفغانية الذي عزف عليـه الغـرب سـنين يخـف تدريجيا ويحل محله لحن جديد وهو إبراز بطل البريسترويكا رجل عام ١٩٨٩ كما تقول مجلة «التايمز» الأميركية علـى غلافها مشيدة ببطل العام جورباتشوف. أمـا وتـر التـدمير والإبادة والتشويه والمعوقين الذي استعملته أميركا قميصا ـ ربما تتاجر به في المحافل الدولية لتحطيم سمعة روسيا فقـد اختفى واتجه الإعلام الغربي إلى إبـراز حـاكم الكـرملين بصورة مشرقة».

«أما الجهاد الأفغاني فقد أضحى في عرف اليهوديـة العالمية حربا أهلية وصراعات قبلية. ويركز الإعلام علـى طمس الصورة المشرقة لهذا الجهاد وإبراز الثغرات وجوانب الضعف فيه لمحو آثاره في أعماق الأمة الإسلامية وتحطـيم عقيدة التوكل على ا التي بناها الجهاد الأفغاني.. كمـا أن

هذا الإعلام يسعى إلى قطع الصلة بين هذا الجهـاد وقلـوب الأمة المسلمة ويحجمه من جهاد إسلامي عالمي إلى قضـية حرب أهلية».

ولم يكن إحباطه مقصورا علـى أسـباب التحـول الإعلامي.. فهو كما يروي فوجئ بفتـور حمـاس العـرب والمسلمين: «التقيت طبقات مختلفة من الشعوب الإسـلامية خاصة العرب.. في رحلتي الأخيرة فوجدت الناس كأن على رؤوسهم الطير.. قال لي خطيب مسجد مشهور فـي جـدة أصبحنا الآن نستحي أن نتكلم فوق المنابر بكلمة واحدة عـن الجهاد الأفغاني.. رغم أنني أعلم أن هذا الشاب مازال ممـن يعتبرون أنفسهم أحد أبناء هذا الجهاد. والتقيت بعالم يشار له بالبنان وترجع إليه جماهير الناس في فتواهم فقال لي أنا الآن مشوش عن الجهاد الأفغاني.. ولذا فإنني متوقـف. وهنـاك رجل من نوع ثالث يقبض على لحيته الطويلة ثم يقول أثنـاء تدريسه إن انتصر الأفغان فاحلقوا لحيتي..».

ويمتد إحباطه إلى وسـائل الإعـلام العربيـة: «إن الإعلام العربي الآن يحطم الأمل الكبير الذي بنـاه الجهـاد الأفغاني في قلوب الجيل المسلم. ويجتث عقيدة التوكل علـى

ا . ويشوه قادة الجهاد ويحرق شخصياتهم في أنظار الأمـة المسلمة لئلا يبقوا رموزا تقلد وأمثلة حية تحتذى.. ويقولـون الآن في حملة شعواء أن حكمتيار لديه مصـنع هيـروين.. ويقنعون الشعوب الإسلامية بأن الجهاد في أفغانسـتان هـو حرب أهلية.. ويحاولون إثبات فشل الجهاد وإنه لا مخـرج من الأزمة إلا من خلال مؤتمر دولي يقتسم المغانم وينتهـب الثمار».

ثم يقول عبد ا عزام فـي نهايـة تجسـيده لهـذا الإحباط: «ليس لنا إزاء ذلك كله إلا أن نقول كما أمرنا ربنا» «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعـوا لكـم فاخشـوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا ا ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمـة من ا وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان ا وا ذو فضل عظيم».. سورة آل عمران الآيتـان «١٧٣ و ١٧٤». (نقلا عن مقال لعبد ا عزام عنوانه حسبنا ا ونعم الوكيل في مجلة الجهاد).

كان من حق عبدا عزام أن يحبط، ولاسيما أنه لـم يكن يريد الاعتراف بأن عددا من الوقائع التي يتحدث عنهـا

الإعلام ـ غربي وعربي ـ هي حقيقة بالفعل ـ لا سيما في ما يتعلق بنشوب الصراع بين الفرقاء الأفغان.

وفضلا عن كل ذلك فهو لم يستطع أن يتـواءم مـع تحولات المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة بعد انقضاء غرضها وتحقيق هدفها من «لعبة الجهاد» فـي أفغانسـتان بانسحاب الاتحاد السوفياتي ثم سقوطه.

لقد احتفى الغرب وإعلامه دائما بمن حقق أهدافـه.. وقد نال عبد ا عزام نصيبه من الاحتفاء الإعلامـي حتـى حقق ما هو مطلوب منه.. حتى لو لم يكن متفقا عليه. وجاء الدور على جورباتشوف لينال الاحتفاء والدعم فهـو يحقـق الهدف نفسـه بأسـلوب آخـر «بـدون جهـاد».. وإنمـا بالبريسترويكا.

الرايات السود ـ عبد ا عزام من الجهاد إلى الاغتيال (الأخيرة) * ميراث الشيخ الراحل

عبدا كمال

* عبد ا عزام أقنع الشباب العرب بأنه سوف يكون من بينهم خليفة يؤسس للخلافة الإسلامية * رغم كل عبارات المديح من عبد ا عزام لأسامة بن لادن كان يثق أكثر فـى «تميم العدناني» كان أسامة بن لادن قريبا من الشيخ عبد ا عزام لبعض الوقت قبل أن يستقل عنه، وتاريخيـا يحسـب للشيخ الفلسطيني أنه هو الذي بدأ التعريف الاعلامي باسـم أسامة بن لادن. لكن الأمر من جانب عبد ا عزام لم يـزد على هذا، وان كانت هذه العلاقة قد أثرت كثيرا في طريقـة تفكير بن لادن في ما بعد إلى أبعد مدى حتى ان عديدا مـن الأفكار التي كان يرددهـا عبـد ا عـزام فـي منتصـف الثمانينات كانت هي نفسها التي رددها أسامة بن لادن بعـده بوضوح وسعى إلى تطبيقها واقعيا.

وفي بعض الأحيان كان أسامة بن لادن يبدو في نظر عبد ا عزام «قدوة يجب أن يتبعها الشباب»، وفي أحيـان أخرى كان يبدو وكأنه «رجل لا نظير له»، وفي أحيان ثالثة كان يراه متبرعا خيرا جزاه ا خير الجزاء عما قدمه للجهاد الأفغاني.. لكنه أبدا لم يره الشخص القادر علـى أن يقـود المسيرة من بعده. وان كان قد وصفه ذات مرة وصفا هـائلا اعتاد أن يقوله في بعض الأحيان عن بعض النـاس.. وهـو «أسامة هذا أمة في رجل».

بشكل أو آخر كان هذا الشيخ الخبير يداعب مخيلات الشباب المجاهد حوله بمثل هذه الكلمات الحماسـية، ومـن المؤكد أن معاني الكلمات الرنانة لم تقف عنـد حـد إلهـاب الحماس، وانما هي أثرت كثيـرا، فـي بعـض الحـالمين والساعين إلى مجد زائف وسط مناخ مؤثر للغاية، ويمكن أن ندرك ونلمس هذا المعنى حين نراجع بعض ما كـان يقولـه الشيخ في كل وقت محركا لطموحات الأفغان العرب.. كـان يقول: «هل الخليفة ينزل من السماء، الخليفـة ينبـت فـي الأرض. يأتي بعد الجهاد وما إلى ذلك. الآن في أفغانسـتان

قام جهاد خلال عشر سنوات برزت قيادات. وأحد من هـذه القيادات سوف يصبح خليفة».

ويستمر الشيخ في تأكيد المعنى عدة مرات: ان شاء ا أنا أرى أن قضية أفغانستان مقبلة إلى النصـر وسـوف تكون ان شاء ا بوابة للدولة الاسلامية، بعد النصر يتسلمها المجاهدون، أي واحد من القادة الكبار ان شاء ا . نحن نأمل أن يطبق الاسلام.. وتطبيق الاسلام لا يتم في سنة ولا فـي سنتين يحتاج إلى سنوات طويلة تثقيف الشعب المسلم». «ان شاء ا تصبح أفغانستان دارا للاسلام.. وقاعـدة صـلبة.. ومنطلقا لعمل جهادي اسلامي في كل أنحاء العالم الاسلامي لتحريره من الكفار ان شاء ا ».

كان عبد ا عزام يمدح كثيرين من الشباب العـرب ويضرب بهم الأمثال والحكايات حتى يكسر حاجز الرهبـة من السفر لدى من يخاطبهم ويدعوهم للجهاد، وحتى يحمـس الآخرين الموجودين فعلا في أفغانستان.. وكمثال فان عبد ا عزام تحدث في الكويت عن شاب لبناني: «أبـو عبـد ا .. مهندس ميكانيكي» هو وزوجته يعيشان في أميركـا.. تـرك الدنيا.. وجاء إلى أفغانستان.. وتفرغ للجهاد.. زوجته ابنـة

سفير في احدي الدول العربية.. يرضى أن يعيش على الفتات هناك في بيشاور.. وأرسلناه إلى كابول حيث القذائف تنصب عليهم داخل الخندق».

مثل هذه الكلمات كان الشيخ عبد ا يبعثرها يمينـا ويسارا، لكنه اصطفى بالاهتمام العلني ثلاثة أشخاص هـم: وائل جليدان، وتميم العدناني، وأسامة بن لادن.

أما وائل فكان يقوم بدور محدد، باعتباره من قيادات هيئات الاغاثة الاسلامية في السعودية. وفي ما بعـد تـرك وائل جليدان أفغانستان وتابع عدة مهـام مختلفـة للاغاثـة الاسلامية التابعة لمؤسسات سعودية في دول مختلفة أهمهـا البوسنة.

وأما تميم العدناني، الذي توفي اثر نوبة قلبيـة فـي الولايات المتحدة، فقد حظي باهتمام خاص من الشيخ عبد ا إلى درجة أنه خصص له عدة مرثيات في أوقـات متنوعـة ومناسبات مختلفة، وبينها ما نشره عنه في كتـاب «الطـود الشامخ.. الشيخ تميم العدناني»، وقد قال عبد ا عزام فـي بدايته: «أحقاً قضى ذلك الليث بعد أن عاش بين الرصـاص والمدافع وتحت وابل النيران أربع ساعات متواصلة بين فكي

الموت في الثلاثين من رمضان ١٤٠٧هـ طلبا للشهادة وتفوتك هناك في المأسدة».

وفيما يبدو فان الانتماء الفلسطيني هو الذي جعل من «تميم العدناني» شخصا قريبا إلى قلب عبد ا عزام، وخاصة أنه - أي تميم - كان قد بدأ يقوم بمهام موازية للشيخ عزام على مستوى العالم، وفي اطار ما يقوم به الشيخ وليس بعيدا عنه. وقد ولد تميم في القدس عام ١٩٤٢ أي أنه كان يصغر عزام بعام واحد. وهو من عائلة معروفة اذ كان جده خورشيد باشا والي القدس في عهد الدولة العثمانية. ثم سافر في معية أسرته إلى سورية. ودرس السياسة في جامعة القاهرة. لكنه عاد وعمل مدرسا في مدرسة ثانوية بدلا من وظيفة دبلوماسية كان يحلم له بها أبوه. ثم سافر إلى السعودية وتوظف في شركة بريطانية للطيران ما لبثت أن عملت في قاعدة الظهران الجوية. ومع نمو اتجاهات تميم الدينية أصبح اماما لمسجد القاعدة الجوية.. ومن هناك بدأ بدوره الترويج لقضية الجهاد الأفغاني وأصبح قبلة المتبرعين وصار يحمل الأموال إلى الجهاد الأفغاني ويقضي اجازة سنوية تلو أخرى بين الأفغان.

هناك اذن تشابه كبير إلى درجة ملموسة في سيرة عزام وتميم. ووصل الأمر من الثقة المتبادلة حد أن طلب عزام من تميم أن يتولى ادارة مكتب الخدمات فقبل وأصبح ظلا موازيا لعزام يطوف الأرض في اتجاهات مختلفة من كندا الي نيجيريا ومن أميركا وفنزويلا إلى اليمن ومصر.

في حدود عام ١٩٨٦ وقعت أشهر معركة شارك فيها الأفغان العرب ضد الروس، سموها «مأسدة الأنصار» وفيما بعد أطلق هذا الاسم على أحد أهم المعسكرات التابعة لتنظيم أسامة بن لادن.. وكان تميم مشاركا في هذه المعركة.. التي أفاض في الثناء عليها كثيرا عبد ا عزام نفسه ومضى يروي تفاصيلها على طريقة السيرة الهلالية.. وكان يشيد في كل مرة بالرجلين أسامة وتميم.

وفي حديثه عن هذه المعركة يفيض الشيخ عبد ا ثناء على أسامة بن محمد بن لادن: «أرجو ا أن يبارك هذا الشاب وأن يحفظه، ضغطه منخفض، مريض، لا يأكل، يحمل في جيبه هذا ملحا وفي جيبه الثاني «تنكة ماء» يذوب الملح، ويشرب ليرفع ضغطه، حتى يستطيع أن يظل واقفا».

ويقول كذلك عنه: «الأخ أسامة بن لادن.. سبحان ا ربنـا يحفظه. ويبارك فيه. هذا أمة في رجل فعلا».

مات عبد ا عزام.

ومات تميم العدناني.

وعاد وائل جليدان إلى بلاده.

وبقي أسامة بن لادن تداعبه كلمات المديح وأوصاف مهولة، ويحاول أن يقوم بما يتصور أنه دوره من أجل الأمة التي وضعت في رجل.. كما قال عنه داعيته ومرشده عبـد ا عزام.

دورات تدريبية أقوى من كلمات المديح الشخصـي

كانت أفكار ورؤى عبد ا عزام مؤثرة تماما فـي عقيـدة هؤلاء الشباب من الأفغان العرب.. وتثبت مراجعة دقيقة لما كان يقوله فيهم وبينهم وحولهم أن نفس تلك الأفكار هي التي صاروا يرددونها في ما بعد ذلك بسـنوات.. وأن مـا كـان يخطب به وعنه عبد ا عزام هو الذي أصبح منهج ورؤيـة تنظيم «القاعدة» الحالم بانشاء الخلافة الاسلامية واستعادة ما يسمى بالأراضي الاسلامية السليبة من أيدي الكفار.

لقد كان عبد ا عزام يقيم ما يشبه الدورات الفكرية غير المنظمة لهؤلاء في المسـجد التـابع لمكتـب خـدمات المجاهدين، وفي هذه الدورات كان يلقي خطبـا علـى أيـام متوالية.. يمزج فيها بأسلوبه الساحر بين الأفكار والنصـائح والعظات والتوعية، ومثل ذلك ما قام بالقائه من دروس حول «الهجرة والاعداد» في بيشاور في جمع من الأفغان العـرب على مدى أربعة أيام متواصلة.. أظنه أنـه هـو الأسـاس الواضح الذي بنى عليه في ما بعد «عبد القادر عبد العزيز» أحد قادة ومفكري تنظيم الجهاد المصري البارزين ـ كتابـه الرصين والمسهب ـ مع اختلافنا معه «العمدة فـي اعـداد العدة».

في هذه الخطب رسخ عبد ا عـزام فـي عقـول تلاميذه فكرة الهجرة: «طريق الهجرة طريق إلـى الجنـة.. طريق إلى الشهادة.. طريق إلى الخير.. طريق إلى الـرزق والعزة». وهي «الخطوة الأولى التي لا بد منها من خطوات الجهاد».. وهي مستمرة «لأنه مـا دام هنـاك قتـال بـين المسلمين والكفار لا تنقطع الهجرة حتى تنقطـع التوبـة ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها».. وهي كـذلك

في رأيه: «اعلان صريح عن التصميم على السير في سبيل ا ، واشعار عام وإيذان كبير على أن النفس البشرية بـدأت تتحرر من الدنيا.. ترك الأهـل.. تـرك الوظيفـة.. تـرك الجامعة.. ترك الأرض التي ولدت فيها».

لقد كانت هناك مشكلة اجتماعية أكيدة بـين أولئـك الشباب الذين سافروا إلى أفغانستان.. وهي أن كثيرا منهم في البداية لم يكن مطاردا من أية أجهزة أمنية في بلـده، وانمـا سافر طواعية، وكان لكل من هؤلاء حياتـه، وارتباطاتـه، وبالتالي هم عاشوا صراعا داخليا بـين شـعورهم الـديني واحساسهم بالانتماء إلى مجتمعات أخرى يشعرون بـالحنين اليها.. وكان لا بد من مقاومة هذا الحنين بأكثر من أسلوب:

- اقناع هؤلاء بحتمية الجهاد.
- اقناعهم والتأكيد المستمر على ذلك أن الدفاع عن كل أراضي المسلمين واجب على كل مسلم.
- اقناعهم بمزايا الاستشهاد.
- تكفير المجتمعات التـي كـانوا يعيشـون فيهـا واقناعهم بأنه لا بد من انشاء دار الاسلام.
- حتمية الهجرة.

ومن هنا كان عبد ا   عزام يقول: «الهجرة الأولـى الواجبة هي الهجرة من دار الكفر إلى دار الاسـلام، وهـي لاقامة دين ا   عز وجل.. الهجرة لاقامة الشـعائر.. اذا لـم تستطع أن تعبد ا   في أي أرض يجب أن تتركهـا إلـى أي أرض أخرى.. وان كنت مولودا في هذه الأرض ولك وظيفة كبرى، وان كان دخلك كبيرا». وكان يضيف موجها خطابـه إلى هؤلاء العرب: «ان لم تهاجر اليوم أنـت ميـت غـدا.. وسيحاسبك ا   ويسألك.. ما الذي منعك من الهجرة.. لمـاذا بقيت تحت حكم فلان او فلان.. الوظيفة الأساسية لك ليسـت أنك معلم أو ضابط أو طبيب... وظيفتك الأساسية أنك عبـد ا ».

وهناك نوع ثان من الهجرة، كما يقول عزام، وهـو «هجر دار الفجور والفسوق». ويتحدث عزام عـن مصـر: «الآن في مصر، في كل سـنة يعقـدون محاكمـات علـى التلفزيون لمجموعات كبيرة من الشباب.. ما هي جريمتهم.. جريمتهم أنهم من تنظيم الجهاد.. أصبح الجهاد جريمة». ولا يقف الأمر عند الدول العربية بل ان الأمر يمتد إلى غيرها: «لا يجوز العيش في مكان لا تستطيع فيه أن تعبد ا . الحياة

في الدول الأوروبية والغربية.. بلاد مشركين.. يجب أن تهجرها.. مجتمعات فاسدة لا تعيش فيها».

وفي ما بعد سوف يكون هذا هو رأي أسامة بن لادن ومن حوله، بل ان هناك من أفتى أنه يجوز قتل المسلمين في بلاد الشرك.. اذ ما الذي أبقاهم هناك؟

اذن ما الحل الذي يقدمه عزام؟

«تعال إلى أفغانستان، تعال جاهد في سبيل ا ، لا يجوز أن تموت في تلك الأرض مستضعفا، والمستضعف إلى جهنم».

ولا يقف الأمر عند الهجرة، وإنما هناك مرحلة أخرى وهي الاعداد: «القوة والرمي والاعداد الجسدي والروحي وتربية الخيول». فالجهاد «يحتاج إلى نفوس تحتمله.. كيف يمكن أن تستمر في طريق الجهاد بدون اعداد». وبعد الاعداد هناك مرحلتان هما «الرباط» ثم «القتال».. وهو يقول: «يوم في الرباط ـ الحالة وليس المدينة ـ خير من القاهرة وما فيها.. أجر المرابط اليوم بألف يوم.. واليوم خير من الدنيا وما فيها».

وفي ما بعد سوف نرى أن أفغانستان صارت بالنسبة لهؤلاء مكانا للرباط والانتظار والاستعداد حتى يتم القتـال، وليس غريبا أن تعتبر قاعدة للانطلاق، وهي قاعـدة ليسـت بالمفهوم العسكري فقط وانما باعتبارها منصة الانطلاق إلى اكتمال عملية الجهاد.. وفي ما بعد فان الجماعة الاسـلامية المصرية سوف تصـدر مجلـة اسـمها «المرابطـون».. مرابطون هناك حتى يبدأون القتال.. وهكذا.

الإرهاب.. فرض في نفس السياق لم أعجـب حـين أدركت من خلال قراءة متفحصة لأدبيات عبد ا عزام أنـه هو الذي وضع البذرة الأولى لكل فكرة قال بها من حـاولوا اقامة دولة الخلافة الاسلامية في أفغانستان. وحين أدهشـني أن يتحدث أسامة بن لادن في ما بعد عام ٢٠٠٠ عن نوعين من الارهاب: نوع حميد مطلوب، ونوع خبيـث مرفـوض ذابت الدهشة حين وجدت أن عبد ا عزام نفسه قال ذلـك: «الارهاب فرض.. ونقول نحن ارهابيين.. كل مسلم يجب أن يكون ارهابيا.. الارهاب فريضة بـنص الكتـاب والسـنة.. والآية ٦٠ من سورة الأنفال تقول: «ترهبون بـه عـدو ا وعدوكم» ارهاب أعداء ا فريضة ورسول ا أول ارهابي

وأول مرعب.. والذي لا يرعب أعداء ا ليس على طريـق الاسلام الحق».

وفي ما بعد اعتبر أسامة بن لادن أن كـل أميركـي يجب أن يحارب.. لأنه يدعم دولته ويدعم اسرائيل بالمـال.. وقد كان ذلك ما قاله كذلك عبد ا عزام من قبله: «هـؤلاء محاربون، محاربون لأنهم يمدون اسـرائيل بالمـال، فهـم محاربون بمالهم». وقد سئل عبد ا عزام: «رجـل يـدفع تبرعات لليهود هل يجوز قتله؟»، فأجاب: «اذا كنت تعلم أنه متعاون بماله مع اليهود يجب قتله». لكن عبد ا عزام لـم يطلق هذه الفتوى على عواهنها بل أضاف: «اما أن يعملهـا أو لا يعملها فهذا حسب المصلحة.. ضررها الآن أكثر مـن نفعها.. وهذه يقدرها الشباب المسلم». وربما نفهم مبرر هذا الشرط الذي أوقف به عبد ا عزام فتواه تلك اذا ما علمنـا أنه أجاب عن هذا السؤال في أحد مساجد كاليفورنيـا عـام ١٩٨٨ .

ويمتد أمر التطابق الفكري بوضوح حين نقرأ كـلام عبد ا عزام عن جواز قتل المسلمين أثناء ممارسة عمليـة الجهاد ضد الكفار، فقد قال عبد ا عزام بالنص في الكويت:

«أجمع الفقهاء على أنه اذا كانت هناك مجموعة أسرى مـن الصالحين المسلمين مع الكافرين وتمترس الكفار بهـم ـ أي وضعوا المسلمين متاريس لحمايـة أنفسـهم ـ وأن هـؤلاء الأسرى من الذين يقومون الليل ويصـومون النهـار لكـن الجيش الكافر يختبئ وراءهم، يجوز أن نقتل المسلمين حتـى نصل إلى الكافرين لأن حفظ الأمة بكاملها أفضل من هـلاك بعضها، ولذلك مسألة التمترس هذه مسألة مجمع عليها مـن الفقهاء نص عليها ابن تيمية، وكل العلماء الحنفية والحنبليـة والشافعية والمالكية.. علـى أنـه اذا تمتـرس المسـلمون بالمسلمين لا يجوز قتلهم أو تمترس أطفال الكافرين بأطفـال الكافرين لا يجوز قتلهم، أو بالنساء اللاتي لا يقاتلن لا يجوز قتلهن.. يجوز أن نضربهم.. وننوي ألا نريد قتل المسلمين.. فتوى قتل واهلاك الجيش الكافر».

لقد أصدر عزام هذه الفتوى حـين كانـت مشـكلة المسلمين الموجودين في كابل تمنع المجاهدين من أن يكملوا طريقهم العسكري نحوها، ولكنه في نفس الوقت وضع البذرة الأساسية للعقيدة التي بنيت على أساسها عمليـات ارهابيـة

أخرى خارج أفغانستان ضد المسلمين قام بها الأفغان العرب من دون أن يعبأوا أو يهتموا بالضحايا المسلمين.

ولا يكتمل هذا المعنى الا بانتباهنا لنقطة أخرى مهمة وهي مسألة «العذر بالجهل».. وهي نقطة مثيـرة للجـدل، وربما أدت إلى انشقاقات وخلافات عميقـة بـين جماعـات التطرف في دول مختلفة، وتقوم هذه المسألة علـى سـؤال أساسي هو: هل يعذر الجاهل فلا يقتل.. هل المواطن العادي الذي لا يعرف شيئا عن الجهاد والتكفير يجوز قتله.. أم يعذر لأنه لا يعرف؟ وبالتالي هل عسكري الدرك المصري الـذي يحرس كنيسة ولا يعرف أفكار تلك الجماعات يجوز قتلـه أم لا؟ الجماعات المتطرفة أجابت عن هذا السؤال باطلاق النار. اذ رأت أنه لا عذر لجاهل.. وبعضها أفتى بالعكس، لكن عبد ا عزام في باكستان وأفغانستان أفتى بالاجابة الأولى فقال: «الذين يقفون مع نجيب ـ يقصد نجيب ا حاكم أفغانسـتان الذي تمرد عليه المجاهدون ـ مسلمين أو غير مسلمين يجوز قتلهم. خذ مني شرعا.. كل من وقف وراء الحزب الحـاكم الشيوعي يجوز قتله.. جهلة أو غير جهلة».

الخلافة.. فرض لكن النقطة الأهم في تأثير عبـد ا عزام في أولئك الأفغان العرب كانت أساسا هـي ترويجـه لفكرة انشاء الخلافة الاسلامية.. فهذه هي النقطة التـي تـم تطبيقها حرفيا في ما بعـد موتـه.. وان كـان المنظـرون والمفكرون المؤسسون لآراء ونظريات تنظيمـات الأفغـان العرب وأبرزها تنظيم «القاعدة»، لم يقولوا ان هـذا منقـول عن عبد ا عزام.

لقد سئل عبد ا عزام: «كيف نعمل على فكرة صنع العالم الاسلامي وتحقيق الخلافة على وجه الأرض.. هل هذا ممكن.. أم أنه أحلام؟». فأجاب: اقامة الخلافة فـي الأرض واجب شرعي على الأمة.. وانما «لا يكلف ا نفسا الا مـا آتاها» و«لا يكلف ا نفسا الا وسعها».. وا عز وجل جعل اقامة هذا الدين واجبا على أعناق البشر. فاذا عملوا بموجب الكتاب والسنة وصلحت عقيدتهم للتوحيد وأحسنوا عبـادتهم، وعرفوا أعداءهم واتضحت عندهم عقيـدة الـولاء والبـراء فوالوا أولياء ا وعادوا أعداء ا ، فهذا يمكن ان شاء ا ـ أي اقامة الخلافة ـ اذا اتفقوا أو قامت مجموعة من النـاس

وجاهدت على هذا التفكير الاسـلامي الواضـح.. فـان ا ينصرهم».

وأضاف: «الوصول إلى الخلافة طريقه هو الطريق الذي سلكه النبي صلي ا عليه وسلم، قيام رجل يدعو إلـى الاصلاح على أساس من عقيدة صحيحة وفكر سليم يجمـع الناس.. تواجههم الجاهلية.. تقوم هذه المعركة الكلامية بـين هذه الجماعة وبين الجاهلية من حولها.. ثم مع الأيام يثبـت من يثبت ويسقط من يسقط.. ثم تشعل هذه الجماعة الجهـاد ضد أعداء ا ، وتنتصر وتتقدم من موقع إلى موقع.. وتحتل مواقع الجاهلية موقعا بعد موقع.. وينصرها ا ويمكن لهـا في الأرض». ان هذا السيناريو السياسي الديني الذي وضعه عبد ا عزام مستوحى بالطبع من المراحل التاريخية التـي مرت بها دعوة الاسلام بداية من النبي محمد صلى ا عليه وسلم.. لكن أسامة بن لادن كان قـد تقمـص بالفعـل دورا مشابها في ما بعد.. تأثرا بزخم كبير أهمـه بالتأكيـد كـلام مرشده الروحي عبد ا عزام.

ومن السيناريو يتضـح أن «الأب الروحـي» كـان بالفعل قد وضع مجموعة من الشـروط المتنوعـة لاقامـة

الخلافة الاسلامية، خاصة أنه استعان مـن البدايـة بالآيـة الكريمة التي تقول «لا يكلف ا نفسا الا وسعها».. واشترط صلاحية العقيدة، وانكشاف الأولياء والأعداء، واتفاق جماعة من الناس على بداية الجهاد، ثم الدعوة للاصلاح.. وبعـدها المعركة الكلامية، ثم القتال، لكن الأفغان العـرب رأوا بعـد ذلك أنهم قد حققوا كل الشروط وأن عليهم الانطـلاق مـن أفغانستان لاقامة الخلافة.

وعموما فان هذه الشروط التي كان يضـعها الشـيخ عزام لم تكن كافية لتخفيف حدة حماس الشباب القـادم مـن بلاده على لهيب من العنف ويريد أن يجاهد ليس فقط لتحرير أفغانستان، وانما لما بعدها. وبالتالي كان عزام يضطر إلـى أن يستمر في مداعبة أحلامهم.. حتى يبقي جـذوة حماسـهم مشتعلة.. هكذا كان يطارد دائما بالسـؤال: هـل تـرى أن أفغانستان بعد التحرير ان شـاء ا تكـون بابـا للخلافـة الاسلامية في الأرض أو مركزا للتدريب الجهادي لأبناء هذه الأمة.. وهل من المتوقع أن يتوسع الجهاد الأفغاني خـارج الحدود الأفغانية؟

وكان عزام يجيب: ان شاء ا أرى أن قضية أفغانستان مقبلة على النصر وانها ان شاء ا سوف تكون بوابة الدولة الاسلامية بعد النصر.. الخ، الاجابة المذكورة في بداية هذا الفصل.

لكن الشيخ الراحل كان يتجاوز أحيانا حماس الشباب الذين يتبعونه، لا سيما في أواخر أيامه، وقبل أن يتم اغتياله، خصوصا حين أدرك أن العالم الغربي والولايات المتحدة يسحبان بساط الدعم من تحت أقدام القضية الأفغانية: ان الاتفاق العالمي على أننا لا نسمح أن يكون هناك حاكم مسلم في العالم أبدا.. لن يسمحوا أبدا بقيام دولة اسلامية.. لن يسمحوا بقيام الخلافة أبدا.. لكن «وا غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

وحين يصل عزام إلى هذه النقطة كان يسأل: ولكن ليس عندنا دولة تؤيد الجهاد؟ وكان يمضي في طريقه بلا توقف: «لا نريد دولة تؤيد الجهاد، نحن سنجبر العالم على الاعتراف بنا، لا نريد اعترافهم، اذا اعترفوا أهلا وسهلا، واذا لم يعترفوا نحن لسنا في حاجة إلى أحد، نحن نضع أرواحنا على أكفنا، نقاتل.. ننتصر على أعدائنا.. نقيم

الاسلام على بقعة أرض مثل أفغانستان.. أفغانستان ستتوسع. الجهاد سوف ينتشر.

سيحارب الاسلام في مناطق أخرى. سيحارب الاسلام اليهود في فلسطين. وينشئ دولة اسلامية في أفغانستان. ثم بعد فترة تتقارب الدول وتتحد وتقوم دولة اسلامية رغم أنف العالم. لأن ا عز وجل تكفل بالنصر».

ثم مضى مع الأحلام وقال لسائله: سوف تفتح روما. وسوف تكون أنت حاكم روما.. ولا تستبعد هذا الآن الحضارة الغربية متفسخة. لا يوجد هناك شيء عند العالم الغربي يقدمونه للعالم، عندهم طائرات، عندهم حرب ذرية، عندهم حرب جرثومية، لكن ليس عندهم قيم ومثل ومبادئ، نحن الذين نملك هذا.

ان هذا بالضبط هو الكلام الذي جرى على ألسنة أسامة بن لادن والأفغان العرب.. وقد تحول هذا الكلام إلى عقيدة ومنهج.. وخطط. وبدأوا بالفعل التنفيذ. وكان صاحب كل هذه الأفكار هو عبد ا عزام.. الذي ما لبث أن قتل حين انتهى دوره سواء كان يعرفه ـ هذا الدور ـ أو لا يعرفه.